منهج الدكتور محمد راتب النابلسي في تفسيره "تفسير النابلسي": قراءة تطبيقية في الأصول والمقاصد

Dr. Mohammed Ratib Al-Nabulsi's Method in His Tafsir "Tafsir Al-Nabulsi": A Study of Foundations and Objectives

د.آمنة أحمد عبد الرحيم دقامسة*

دكتوراة الإدارة وأصول التربية

– جامعة اليرموك– المملكة الأردنية الهاشمية

amnehdagamseh845@gmail.com

ثائر محمد إبراهيم

طالب دراسات عليا، المملكة الأردنية الهاشمية

Thaeralmalkawi123@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2025/06/10 تاريخ القبول: 2025/11/22 تاريخ النَّشر: 2025/12/16

ملخص:

تتناول هذه الدراسة منهج الدكتور محمد راتب النابلسي في تفسيره للقرآن الكريم، من خلال قراءة تحليلية لأصوله ومقاصده التفسيرية. وقد اعتمد النابلسي على عدد من التفاسير التراثية والمعاصرة، مثل تفسير الطبري، والقرطبي، وابن كثير، والظلال، مما أثرى تفسيره بالرؤية التكاملية. اعتمدت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي، واحتوت على تطبيق عملي لنماذج مختارة من تفسيره. وتوصلت الدراسة إلى أن تفسير النابلسي يتميز بالربط بين اللغة والسياق والمعنى المقاصدي للنص.

الكلمات المفتاحية: النابلسي، التفسير، اللغة، الأصول، المقاصد.

Abstract: This study examines Dr. Mohammed Ratib Al-Nabulsi's method in his Qur'anic exegesis through an analytical reading of its foundations and objectives. Al-Nabulsi drew extensively from classical and modern tafsirs, such as those of Al-Tabari, Al-Qurtubi, Ibn Kathir, and Sayyid Qutb, enriching his interpretation with a holistic perspective. The study uses the descriptive-analytical method and includes a practical application to selected verses. The findings reveal that Al-Nabulsi's tafsir is characterized by an integrative approach that links linguistic analysis with contextual and purposive meanings of the Qur'anic text.

Keywords: Nabulsi, Tafsir, Language, Foundations, Objectives.

مقدّمة:

* المؤلف المراسل

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، إمام المرسلين وعلى آله وصحابته أجمعين، ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين، أما بعدُ:

يعد القرآن الكريم المصدر الرئيس الذي يدلنا ويوجهنا لمعرفة الخالق جل وعلا، فهو كلامه الذي أنزله على نبيه صلى الله عليه وسلم، ليوجه الناس إلى طريق الرشد والسداد، ليخرجهم من الظلمات إلى النور، والقرآن الكريم هو حلقةُ الوصل ما بين العباد وربهم عز وجل، فهو دستورنا وهو مرشدنا وموصلنا إلى الله تعالى، وهذا الكتاب الكريم حتى نصل به إلى الله تعالى، لا بد لنا أن نتدبر آياته، فالله تعالى لا يريد منا أن نقرأ القرآن الكريم فقط، وإنما يريدنا أن نتدبر آياته جل وعلا، قال تعالى: "أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها"، فالله جل وعلا لم يقل أفلا يقرؤون القرآن، بل قال أفلا يتدبرون، فالتدبر غاية سامية عظمى لا يصل لها إلا رجلٌ امتلأ قلبه بالإيمان، وكان على مراد الله تعالى، وعلى مراد نبيه صلى الله عليه وسلم، فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يعلمنا من خلال آيات الله تعالى، أن الله تعالى لا يريد كثرة العمل بل يريد حسن العمل، قال تعالى: "تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (2)" [سورة الملك: 1+ 2]. لم يقل الله تعالى: أيكم أكثر عملا، بل قال: أيكم أحسن عملا، وحسن العمل لا يأتي إلا مع التدبر والتفكر، فالإنسان قد منَّ الله عليه بنعمة البصر، وكانت العين وما زالت للإنسان هي المبصرة الدالة على الطريق، ولكن لا يمكن لهذه العين الإبصار إلا بالنور، سواء بنور الشمس، أو بالأنوار الصناعية كالسراج والشموع وغيرها من الأدوات الكهربائية الحديثة، وكذلك العقل مهما أبدع، ومهما بلغ من الحكمة والرجاحة، فلا يمكن أن يدرك الحِكَمَ والحقائق لما حوله إلا بدليل يوصله إلى ذلك، كما أن العين لا بد لها للنور لتبصر، كذلك لا بد للعقل من النور ليبصر، ولكن نور العقل يختلف اختلافا كليا عن نور العين، فنور الإبصار الشمس، ونور العقل هو نور الله تعالى، ونور الله تعالى هو القرآن الكريم، فإذا علم الإنسان أن نور العقول والقلوب هو القرآن الكريم فلا يضل ولا يشقى.

إن الله تعالى ذكر في كتابه الكريم حكم وعبر وآيات كونية، لتدل الإنسان على الخالق جل وعلا، ويجب على العاقل الحصيف أن يعلم أن الله عز وجل ما خلق من شيء إلا وله حكمتان أو وظيفتان: فالأولى وهي الوظيفة الكبرى؛ وهي أن يتعرف الناس إلى خالقهم من خلال هذا الخلق، والوظيفة الثانية؛ وهي وظيفة الانتفاع، الانتفاع بما خلقه الله تعالى، وللأسف الشديد فإننا نجد أن الناس قد تكالبوا واجتمعوا وانتفعوا من الوظيفة الثانية، وهي وظيفة الانتفاع بما خلق الله تعالى وسخره للإنسان؛ من نبات وحيوان وجماد، ما سخره الله تعالى من بحار ومحيطات...، ولكنهم غفلوا وحرموا أنفسهم من الوظيفة الأولى، وهي الوظيفة الكبرى والأهم، وهي معرفة الله تعالى [1]، هم استفادوا من النبات والحيوان والجماد في حياتهم، لكنهم لم يتفكروا في خلق الله وقدرته في هذه المخلوقات، أما أهل الإيمان فإنهم أخذوا الوظيفة الثانية وهي وظيفة الانتفاع، ولكنهم لم يُغفلوا الوظيفة الكبرى

والغاية الأسمى، وهي معرفة الخالق جل وعلا من خلال آياته ومخلوقاته، فلقد جعلوا الله نُصبَ أعينهم، وعرفوا أن كلَّ ما حولهم من خلق الله تعالى إنما هي آيات باهرات تدل على عظمة الخالق جل وعلا، وعرفوا أن الدنيا دار ممرٍ لا دار مستقر، دار ابتلاء وعمل، لا دار راحة وكسل، علموا أن الحياة الدنيا إنما جاء اسمها من الدنو، وإن الحياة الآخرة لهي الحيوان، قال تعالى: "إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (192)" [سورة آل عمران: 190- 192].

ولقد خلق الله تعالى الإنسان لغاية عظمى وهي عبادته سبحانه جل وعلا، ومن ثم جعل له مهمة ثانية وهي عمارة الأرض والاستخلاف فيها، هذا الإنسان لم يخلق عبثا، فإذا جعل الإنسان القرآن الكريم مرشده ودليله فلن يضل أبد. وفي هذا البحث المتواضع سنتناول تفسيراً لأحد العلماء المحدثين، وهو الأستاذ الدكتور محمد راتب النابلسي، ذلك العالم الذي لاقى القبول، وكانت صياغته في تفسيره صياغة متعددة لأنه يخاطب شرائح أيضا متعددة، فتارة تراه يسهب ويطنب لإيصال الفكرة بأسلوب سلسل للناس، وتارة تراه يختصر ويوجز بأفضل العبارات وأجملها، وسنجمع ما تمكنا حول هذا التفسير، الصورة العامة لهذا التفسير، ومنهجية المفسر به، والمنهجية الغالبة على السورة، وتتبع بعض الآيات، بالإضافة إلى تعريف بالتفسير وصاحبه، هذا فيما يخص المبحث الأول، أما المبحث الثاني، وهو التطبيق العملي، سيكون تطبيقا على سورتين شريفتين من كتاب الله تعالى، وهما سورة مريم، وسورة العنكبوت إن شاء الله، والله الموَفِّق.

قضية الدراسة

يعد تفسير النابلسي للأستاذ الدكتور محمد راتب النابلسي، من التفاسير الحديثة، والشيخ النابلسي لاقى من القبول بين الناس ما لاقى، ولذلك يعد تفسيره من التفاسير المهمة في العصر الحديث، وفي بحثنا هذا سنعكف عليه منهج النابلسي والأصول المتبعة بالتفسير، وبمن تأثر، ولغته، وهل كان تفسيره بالمأثور أم بالرأي، وخاصة أن هذا التفسير لم يكتفِ صاحبه بالتفسير فقط، وإنما ضمنه تدبرات في النفس والكون والحياة، مما جعله قريبا من القلوب، بالإضافة إلى الأدلة المقنعة للعقل والقلب، ومخاطبته للفطرة الإنسانية البسيطة.

أهمية الدراسة

وتكمن أهمية هذه الدراسة من أهمية التفسير المدروس، حيث يعد تفسير النابلسي من التفاسير الحديثة كما ذكرت سابقا، وهذا التفسير لاقى صاحبه القبول لسلاسة أسلوبه، ولقرب كلامه من الناس، ومخاطبته للعقل والقلب معا، وكون هذا الكتاب من الكتب الحديثة في التفسير كان لزاما علينا أن نظهره لما فيه من الفوائد الجمة،

سنتناول منهجه، ولغته، وأسلوبه، وبمن تأثر...، هذه الأمور وغيرُها سنحاول توضيحها في دراستنا هذه إن شاء الله.

أهداف الدراسة

تهدف الدراسة للإجابة عن أسئلة الدراسة، والتي تسعى كما ذكرنا للتعريف بتفسير النابلسي، وبيان منهجه، وأسلوبه، ولغته، والتفسير بين القدماء والمحدثين، وأهم الشروط الواجب توافرها في المفسر حتى كون مفسرا، كما نسعى لبيان آداب المفسر، والمناهج التي يتبعها المفسرون في تفاسيرهم.

أسئلة الدراسة

1. ما المنهج المتبع في تفسير النابلسي؟
2. ما التفاسير التي استفاد منها النابلسي في إنجاز تفسيره؟
3. هل كان تفسير النابلسي بالمأثور أم كان تفسيرا بالرأي؟
4. ما الأسلوب المتبع في تفسير النابلسي، هل هو الأسلوب العلمي البحت، أم كان يراعي طبقات وشرائح الناس كافة؟
5. ما الفرق بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي؟
6. ما الفرق بين التفسير والتأويل، وما هي شروط المفسر؟
7. ما الفرق في التفسير ما بين التفسير بعهد النبي صلى الله عليه وسلم والتفسير بعهد التابعين ومن بعدهم؟

منهجية الدراسة

وقد قمت باختيار منهجية تناسب الدراسة المطلوبة وهو المنهج التحليلي الوصفي، والذي دعاني لاختيار هذا المنهج هو أن المنهج الوصفي يسعى دائما لاستكشاف ما في داخل النص، بل يتجاوزه إلى ما وراء النص أيضا، وهذا أبلغ في الحجة، وأكمل للدلالة، كما أن المنهج الوصفي التحليلي يساعد الباحث على تحليل وتفكيك المحتوى من أجل فحصه وفهمه، والمنهج الوصفي التحليلي يعطيك الحرية في التحرك الأفقي، ليس كغيره من المناهج يجبرك على التحرك العامودي والتَّمَحْوُر حول فكرة الإقناع كما هو الحال في البحث الجدلي الإقناعي مثلا، وكل هذا من وجهة نظر الباحث يعينه على دراسته.

محاور الدراسة

وقد قمت بتقسيم هذا البحث إلى مبحثين، في المبحث الأول المادة النظرية، والتي سنبين فيها تعريف بتفسير النابلسي، وتعريف بصاحبه، ومنهجه، وأسلوبه، وأصول تفسيره، ومناهج المفسرين، وأشهر المفسرين الذين أخذ عنهم صاحب الكتاب، والفرق بين التفسير والتأويل، وشروط المفسر، والتفسير في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، والتفسير في عصر التابعين، والتفسير بالعصر الحديث، مع ذكر بعض التفاسير التي اعتمدت على التفسير

بالمأثور، والتفاسير التي اعتمدت على التفسير بالرأي، ومن ثم التطبيق سيكون في المبحث الثاني على سورتي مريم والعنكبوت، وقد سبق هذه المباحث، مقدمة، وأسئلة الدراسة ومنهجيتها، ولحقها الخاتمة والنتائج وقائمة بأسماء المصادر والمراجع التي رجعت لها.

المبحث الأول: القرآن الكريم بين التفسير والتأويل

المطلب الأول: محمد راتب النابلسي مفسرا

الفرع الأول: التعريف بصاحب التفسير

صاحب التفسير الأستاذ الدكتور محمد راتب عبد الله النابلسي، ويمتد نسبه إلى الشيخ الجليل المعروف من علماء الشام الشيخ عبد الغني النابلسي، وراتب ليس اسم والده، بل اسم مركب "محمد راتب" والده من علماء الشام، توفي ووقد بلغ ابنه سن الخامسة، وقد ترك له مكتبة ضخمة من المخطوطات القيمة، ووالدته هي صفية مارديني، جدها سعيد مارديني، من كبار علماء الشام، ويذكر أن زوجته ابنة الشيخ عبد الهادي الباني، وهو أيضا من كبار علماء الشام، والذي عرف عنه علمه بالتفسير، والمواريث، واللغة والحديث وغيرها (2)، والشيخ النابلسي داعية إسلاميٌّ معاصر من سوريا، من مواليد دمشق في 1939/1/29 ويبلغ من العمر اثنين وثمانين عاما، نشأ النابلسي في أسرة بسيطة الحال، لكن لها اهتمام كبير بالعلم وأهله، أشتهر النابلسي بدروسه المتعددة التي في الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، والتفسير، والشمائل النبوية، وكما أُشتُهر عنه سلسة دروس أسماء الله الحسنى، وكما له دروس دينية متعددة تعقد في المساجد، وعبر شاشات التلفاز على قنوات وإذاعات عدة، نشأ النابلسي ودرس في مدارس دمشق، ثم بعد أن أنهى الثانوية العامة درس اللغة العربية في جامعة دمشق وتخرج 1964م، كما ودرس في معهد تدريب وإعداد المعلمين، وبعد مدة حصل على درجة الماجستير في تخصص الآداب، كما ويحمل شهادة الماجستير في الفنون العربية من جامعة ليون في فرنسا، ثم سافر طلبا للعلم حتى حطت رحاله في إيرلندا وتخرج في جامعة دبلن عام 1999، وحصل على درجة الدكتوراه في التربية بأطروحته الموسومة: "**تربية الأولاد في الإسلام**"، ومما يذكر أن النابلسي عمل بالتدريس الجامعي في جامعة دمشق زهاء ثلاثين سنة، ومن أبرز المساقات التي قام بتدريسها: مساق الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وقبل التدريس الجامعي كان النابلسي قد عمل بالتدريس الثانوي، ومن بعد ذلك عمل محاضرا في جامعة الأزهر أيضا مدرسا لمادة الإعجاز العلمي، وعمل أيضا مدرسا في جامعة أم درمان السودانية فرع دمشق، كما وعمل محاضرا في جامعة طرابلس الإسلامية، له العديد من المساهمات والنشاطات الدعوية والمؤتمرات داخل سوريا وخارجها عربيا وعالميا، والنابلسي له العديد من البرامج التلفزيونية والإذاعية على مستوى العالم الإسلامي، وله متابعون كثر، وله قبول كبير جدا عند العامة وطلاب العلم لما يتمتع به من سلاسة بأسلوبه وتبسيط لمعلوماته، كما وله موقع خاص ومكتبة إلكترونية على الشبكة العنكبوتية الإنترنت، بعنوان موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية، وله قناة على

اليوتيوب، وله العديد من المؤلفات والكتب الأكاديمية والمقالات، من أشهرها تفسير النابلسي، نظرات في الإسلام، وقد تمت ترجمته للإنجليزية، وتأملات في الإسلام، وأيضا تمت ترجمته للإنجليزية، وكتاب ومضات في الإسلام، وغيرها العديد من المؤلفات، وقد انتقل النابلسي من مكان إقامته في سوريا وهو الآن يقيم في العاصمة الأردنية عمان.

الفرع الثاني: تعريف بتفسير النابلسي

هو الأستاذ الدكتور محمد راتب النابلسي، وتفسيره الموسوم بـ (تفسير النابلسي، تدبر آيات الله في النفس والكون والحياة)، ذلك العالم الذي لاقى القبول، وكانت صياغته في تفسيره صياغة متعددة لأنه يخاطب شرائح أيضا متعددة، فتارة تراه يسهب ويطنب لإيصال الفكرة بأسلوب سلسل للناس، وتارة تراه يختصر ويوجز بأفضل العبارات وأجملها، فلكل مقام مقال، ولقد جعل النابلسي تفسيره أربعةَ عشرَ جزءًا، ونراه في المقدمة أنه يشير إلى أن هذا التفسير أخذ منه وقتا طويلا لإتمامه، فلقد أتمه بعد أربعين عاما من العمل الدؤوب، ولقد بدأ بتفسيره في جامع الشيخ عبد الغني النابلسي بدمشق، في بداية السبعينيات من القرن الماضي، القرن العشرين، حيث أنه كان له حلقة أسبوعيا يجتمع لها طلاب العلم والعامة، ويشير النابلسي إلى أنه بدأ بتفسير الجزء الأخير من القرآن الكريم، وهو جزء عمَّ، ولعله وُفِّقَ باختياره، فهذا الجزء من القرآن الكريم جزءٌ قريب من العقول والقلوب، وكل القرآن الكريم كذلك، ولكن هذا الجزء له خصوصية بأنه يحتوي على قصار السور، وهذه السور يُعَلِّمها الأب لابنه، والأستاذ لطلابه، فلا يعقل أن يبدأ الأستاذ بتعليم طلابه وتحفيظهم من طوال السور، بل لا بد له من مراعات صغر سنهم، فترى هذا الجزء يحفظه الصغير والكبير، ثم نرى الشيخ النابلسي بعد أن أتم تفسير الجزء الثلاثين، انتقل إلى تفسير التسعة أجزاء التي قبله، بحيث يكمل بذلك الثلث الأخير من القرآن الكريم، ثم بعد أن أتم الثلث الأخير انتقل إلى تفسير الأجزاء العشرة الثانية، ثم بعد ذلك انتقل إلى تفسير العشرة أجزاء الأُوَل، ولكنه يشير أيضا إلى أنه وصل إلى منتصف سورة التوبة وهو في دمشق، ثم شاء الله عز وجل له أن ينتقل إلى المملكة الأردنية الهاشمية، إلى عمان، وأتم تفسيره في مسجد الهادي بعمان العاصمة، الشيخ النابلسي بذل جهدا كبيرا جدا في إنجاز هذا التفسير حيث أنه لم يعتمد على تفسيره فقط، وإنما كان يُعِدُّ ويُحَضِّرُ من تفاسير كثيرة لدروسه، ومنها أنه اعتمد على تفسير الطبري، والرازي، وابن كثير، والظلال، والشعراوي، ومحاسن التأويل، وغيرها الكثير من كتب التفسير مما يفتح الآفاق أمامه في التفسير، ثم بعد هذه التفاسير نراه اجتهد في فهم آيات الله تعالى الكونية، من كواكب، ونجوم، وبحار، ومحيطات، وغابات، وإنسان، وحيوان، كما أنه كان يعتمد إلى جانب ذلك إلى موسوعات وكتب عالمية تتحدث عظمة الله تعالى في خلقه سبحانه وتعالى، قلنا أن أصل هذا التفسير دروس كان يلقيها بشكل أسبوعي في مسجد الشيخ عبد الغني النابلسي بدمشق، وكان حريصا على تسجيل تلك الدروس على أشرطة الكاسيت المتوافرة في ذلك الوقت، ولقد قام مجموعة من طلابه بإفراغ هذه

الأشرطة على الورق، وبعد أن أفرغها طلابه على الورق قام بمراجعتها وإقرارهم عليها، ليوافق المطبوعُ المسموعَ، وقام بتخريج الآيات والأحاديث وردها إلى مصادرها الصحيحة، وأما الأقوال والأمثال أشار أنه وظفها في سياقات مناسبة لتخدم التفسير دون نسبة تلك الأقوال إلى صاحبها، فهذا من شأن الدرس وليس الغاية المرجوة، وأما الآيات والأحاديث المكررة قام بحذفها للاختصار، أما ما أوجبَ السياق ذكره فقد ذكره، فبعض التكرار يكون لأغراض بلاغية وبيانية فلا بد من التكرار في بعض الأحيان، ولقد انتهى من تفسيره في 1437/4/9 الموافق 19 كانون الثاني 2016، وحازت مؤسسة الفرسان للنشر في عمان على شرف طباعته ونشره.

المطلب الثاني: التفسير والتأويل والفرق بينهما

الفرع الأول: التفسير لغة واصطلاحا

التفسير لغة: والتفسير في اللغة كما جاء في لسان العرب "الفَسْرُ البيان وكشف المغطى" [3] والتفسير يأتي بمعنى إظهار المعنى من النص الذي يوهم الإبهام، والتفسير هو الإبانة، ولقد جاءت في القرآن الكريم في قوله تعالى: "ولا يأتونك بمثلٍ إلا جئناك بالحق وأحسنَ تفسيرا" [سورة الفرقان الآية: 33]. والمعنى بيانا وتفصيلا، يقال أسفر الصبح، أي ظهر وبان.

وفي الاصطلاح: عرفه أبو حيان في البحر المحيط للتفسير فقال: "التفسير علمٌ يُبحثُ فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن الكريم، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية، والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب، وتتمات ذلك" [4]. وقد قُصدَ بالعلم الذي يبحث عن كيفية النطق: علم القراءات، ومدلولاتها: أي مدلولات هذه الألفاظ، ويدخل فيه علم اللغة، والأحكام الإفرادية والتركيبية: هذا يشمل علوم اللغة العربية من صرفٍ وإعرابٍ، وبيانٍ، وبديعٍ، أما المعاني التي تُحمل عليها حالة التركيب: فهذا يشمل ما دل عليه حقيقةً، وما دل عليه مجازاً، فلربما دل اللفظ في ظاهره على شيء ودل على غيره حقيقة، أما التتمات: فيقصد بذلك معرفة علوم القرآن من ناسخٍ ومنسوخٍ، وسبب نزولٍ، ومحكمٍ ومتشابهٍ .... وقد اختصر ذلك الزركشي فقال: أنه العلم الذي لا تتم معرفة كتاب الله عز وجل إلا به، وبه تُستخرج الأحكام والحكم [5].

الفرع الثاني: **التأويل لغة واصطلاحا**

التأويل في اللغة: والتأويل في اللغة هو : "الرجوع إلى الأصل" [6]. وفي لغة العرب الأول يأتي بمعن الرجوع، يقال أوَّل الكلام؛ أي أرجعه إلى أصله.

التأويل في الاصطلاح: وقيل في معنى التأويل اصطلاحا: "تفسير الكلام وبيان معناه، سواء وافق ظاهره أو خالفه، وفي قولٍ آخر: نفس الكلام المراد"، أي يوافق ظاهره ولا يخالفه" [7].

المطلب الثالث: الفرق ما بين التفسير والتأويل

الفرع الأول: التمييز بين اللفظين

هناك خلاف كبير بين العلماء بالتفريق والتمييز بين اللفظين، فمنهم من جعلهما في معنًى واحد، ومنهم من جعلهما مختلفين، فقيل أن التفسير في اللغة راجعٌ إلى معنى الإظهار والكشف، أما التأويل: ففي اللغة هو الأَوْلُ وهو الرجوع. وقيل أن التفسير هو الذي يأتي ليُبَيِّن ما جاء في كتاب الله تعالى معيَّنًا فيما جاء صحيحا في السنة، فالمعنى الظهور والوضوح، أما التأويل: فهو ما استنبطه الفقهاء والعلماء من النص، وذهب آخرون وقالوا أن التفسير ما تعلق ذاتا بالرواية، والتأويل ما تعلق ذاته بالدراية. وقد قيل أن التفسير كثيرا ما يستخدم في المفردات والألفاظ، أما التأويل يستعمل كثيرا في الجمل والمعاني [8]. وفي الحقيقة أن التفسير قائم على توضيح وتبيان النص الذي أمامك، أما معنى التأويل فيتجاوز ذلك إلى الاجتهاد.

ويقول الدكتور صلاح الخالدي: أن التفسير هو البيان والوضوح والكشف كما مر بنا سابقا، والتأويل على خلاف ذلك، فهو الرد والارجاع، ويتجاوز ذلك إلى بيان المآل، فالتفسير هو فهم الآيات الكريمات، وبيان المعنى والدلالة، وتأويل الآيات هو إزالة غموضها وما فيها من إشكال، واستنباط ما فيها، واستخراج الحكم والأحكام [9].

الفرع الثاني: شروط المُفَسِّر [10]

وهناك شروط للمفسر لا بد من توافرها، وإذا لم تتوافر في المفسر فلا يستحق أن يمتطي جواد علم التفسير، ومن أهم هذه الشروط:

1. أن يكون صحيح الاعتقاد، متجردا عن الهوى، فلا بد للمفسر من صحة الاعتقاد والتجرد عن الهوى الشخصي لما له من انعكاسات على عمله بالتفسير، فالأهواء تجعل المفسر ينتصر لرأيه الشخصي، أو لحزبه، أو لطائفته.
2. ومن تلك الشروط أن يبدأ بتفسير القرآن بالقران الكريم، بحيث تأتي بعض الآيات تفسر آيات أخرى لكتاب الله تعالى، وبعد القرآن الكريم يأتي تفسير القرآن الكريم بالسنة النبوية الشريفة، فالسنة شارحة للقرآن الكريم، ومن بعد السنة إن لم يجد رجع لأقوال الصحابة رضي الله تعالى عنهم، فهم العدول الثقات الذين رافقوا النبي صلى الله عليه وسلم، وقد شهد لهم بالعدل النبي عليه الصلاة والسلام، فإن لم يجد لا في القرآن الكريم، ولا في السنة، ولا في أقوال الصحابة، رجع بعض العلماء لأقوال التابعين وما صح منها، كمجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والحسن البصري، وعطاء، ومسروق بن الأجدع، والضحاك، غيرهم الكثير.
3. وبعد ذلك لا بد من شرط مهما جدا، وهو العلم باللغة العربية وفروعها، فلا يعقل أن يفسر القرآن الكريم الذي جاء باللغة العربية تحديا لأهل اللغة من لا يتقن اللغة العربية، وقد ورد عن مجاهد أنه قال: لا يحل لأحد أن يتكلم في كتاب الله تعالى إذا لم يكن عالما بلغات العرب.

4. أن يكون عالما بعلوم القرآن الكريم، كعلم القراءات، والمكي، والمدني، والناسخ، والمنسوخ، والمحكم، والمتشابه، وأسباب النزول، وعلم الأصول، وعلم التجويد.
5. ومن الشروط أيضا دقة الفهم، وهي دقةٌ تمكنه من الفهم واستنباط الحكم والأحكام وترجيح معنى على آخر، ورأي على آخر.

الفرع الثالث: آداب المفسر وشروطه (11)

كما أن للمفسر شروط لا بد من توافرها فيه، كذلك لا بد له من توفر جملة من الآداب، ومن أهم الآداب:

1. حسن النية وصحة المقصد، فإنما الأعمال بالنيات، فإن لم تكن نيته خالصة لوجه الله تعالى، فلا فائدة من هذا العمل، فيجب عليه أن يخلص في خدمة كتاب الله تعالى.
2. حسن الخلق: فهو يتعامل مع كتاب الله تعالى، ولا يصح أن يكون المفسر غير ذلك، ويجب أن يُشهد له بذلك، ولا يكفي أن يزكي نفسه.
3. ويجب عليه أن يتحرى دائما الصدق والدقة في النقل، ويجب عليه الامتثال والعمل بما يقرأ، فلا يصح من المفسر أن يكون مخالفا لما في كتاب الله تعالى، فهو القدوة في ذلك.
4. أن يكون عزيز النفس مترفعا عن سفاسف الأمور، وأن يظهر الحق مهما كلفه الأمر، وأن يقدم من هو أعلم منه، ويجب عليه أن يتأنى في تفسيره وإصداره للأحكام، لا أن يكون عجولا.
5. أن يكون حسن السمت، وأن يرتب ما يبدأ به متسلسلا، ما يمليه عليه علمه وضميره في ذلك.

المبحث الثاني: التفسير بعهد النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة ومن بعدهم من التابعين

المطلب الأول: القرآن الكريم والإعجاز

الفرع الأول: حرص الصحابة على فهم كتاب الله تعالى

مما لا شك فيه أن القرآن الكريم هو كتاب الله تعالى المعجز الذي أُنزل تحديا للعرب الذين نزل هذا الكتاب بلغتهم، ومع أن القرآن جاء على لغة العرب إلا أنهم لن يستطيعوا جميعهم أن يدركوا أحكامه ومراميه، ولا بد من متخصصين يفسرون ويشرحون ما في هذا الكتاب الكريم. ولقد كان الصحابة رضي الله عنهم يفهمون القرآن كونه أنزل كما قلنا بلغتهم، لكن في الحقيقة هناك أمورٌ دقيقة كانت تغيب عنهم، وهم كذلك يتفاوتون بفهمه، وقد يغيب عن أحدهم ما يفهمه الآخر وهكذا، من هو ولا بد لفهمها من الرجوع للنبي صلى الله عليه وسلم، كونه لا مجال للاجتهاد بوجوده عليه الصلاة والسلام.

والنبي عليه الصلاة والسلام مما لا شك فيه أنه كان يفهم القرآن الكريم جملة وتفصيلا، وكان يبين ذلك للصحابة رضي الله تعالى عنهم، قال تعالى: "وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزِّل إليهم ولعلهم يتفكرون" [سورة

النحل الآية: 44]. وكان الصحابة رضي الله تعالى عنهم حريصون على حفظ وفهم كتاب الله تعالى من النبي عليه الصلاة والسلام، ومما يروى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: كنا لا نتجاوز عشر آيات حتى نتعلمَهُنَّ ونعمل بهنَّ، ونُعَلِّمَهُنَّ، ونعلم حلالهنَّ وحرامهنَّ، فأوتينا العلم والعمل، فكان الصحابة رضي الله تعالى عنهم يكرسون جهودهم الجبارة في فهم كتاب الله تعالى، وكانوا يحرصون على ذلك، وقد قال ابن قتيبة في تفاوت الفهم لدى الناس: "إن العرب لا تستوي في المعرفة بجميع ما في القرآن من الغريب والمتشابه، بل إن بعضها يَفْضُلُ في ذلك عن بعض" (12).

الفرع الثاني: مصادر تفسير الصحابة لكتاب الله تعالى

اعتمد الصحابة رضي الله عنه على ثلاثة مصادر في تفسيرهم لكتاب الله تعالى، وكما يلي (13):

1. **القرآن الكريم**، فأول مصادر التفسير هو القرآن الكريم، فالقرآن الكريم يفسر بعضه بعضا، فما جاء مجملا في أحد سور القرآن الكريم، جاء مفصلا في سورة أخرى.
2. **النبي صلى الله عليه وسلم، هو المصدر الرئيس في تفسير القرآن الكريم بعد تفسير القرآن بالقرآن،** وكان الصحابة رضي الله عنه يرجعون للنبي في كل شيء في هذا المجال وفي غيره، وهو التفسير بالمأثور عن رسول الله عليه الصلاة والسلام.
3. **والمصدر الثالث هو الفهم والاجتهاد**، فكان الصحابة إذا لم يجدوا في كتاب الله تعالى، ولا في السنة النبوية الشريفة، اجتهدوا في الفهم، وليس من حق الجميع أن يجتهد، بل يجب أن يكون عالما بأصول التفسير، وأصول اللغة، والحديث، وبالتأكيد عالما بأصول الفقه، ليتمكن من الترجيح بين المسائل والآراء.

ومن الجدير بالذكر أن التفسير لم يدون في هذا العصر، لعدم وجود التدوين إلا ما قل منه، والتدوين بدأ في القرن الثاني الهجري، وكان يعد علم التفسير في ذلك الوقت في أصح الأقوال أنه فرع من علوم الحديث الشريف، وكانت التفاسير تروى منثورة هنا وهناك، لا بشكل منتظم ومجتمع مع بعضها بتسلسل معين.

المطلب الثاني: مناهج المفسرين أقسامهم

الفرع الأول: التفسير بعهد التابعين

من البديهي أن يُنقل عن النبي صلى الله عليه وسلم، وعن الصحابة رضي الله عنهم جميعا تفسير القرآن الكريم، ولكن في الحقيقة إن ما نقل عنهم لم يتناول جميع آيات القرآن الكريم، والذي تم تناوله هو الغامض من الآيات، ثم بعد ذلك العصر بدأ الناس يبتعدون عن لغتهم، وابتعدوا عن فهم القرآن الكريم كما كانوا في بداية الأمر، فكلما بعدوا عن عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، زادت حاجتهم في ذلك، فازداد التفسير، وظهر

المفسرون على قدر ذلك من أجل بيان ما غَمُضَ منه، وبعد ذلك أصبح هناك متخصصون في التفسير أكثر، وأصبحوا يتدرجون في التفسير حتى بلغوا في ذلك العلم الشيء الكثير [14].

ولما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية، ولما انتقل الصحابة إلى مناطق متعددة، ظهرت مدارس في التفسير، ومن أشهر تلك المدارس مدرسة ابن عباس في مكة المكرمة، وابن عباس كان من العلماء، كيف لا وقد دعا النبي صلى الله عليه وسلم بأن يُفَقِّهُهُ في الدين ويعلمه التأويل، ولقد كان لابن عباس تلاميذ في مدرسته، ومن أشهرهم مجاهد، وعكرمة مولى ابن عباس، وسعيد بن جبير، وعطاء، وطاووس بن كيسان...، ومن المدارس التي ظهرت في المدينة مدرسة أُبي بن كعب رضي الله عنه، وقد كان له تلاميذ، ومن أشهر تلاميذه، زيد بن أسلم، وأبو العالية، ومحمد بن كعب القرظي، ومنهم من أخذ منه مشافهةً، ومنهم من أخذ منه واسطة عمن أخذ منه، ومن المدارس في العراق مدرسة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وقد قيل عن هذه المدرسة أنها نواة لمدرسة الرأي، ولقد عرف من المفسرين في العراق كُثُر، ومنهم عامر الشعبي، وقتادة بن دعامة السدوسي، والحسن البصري، والأسود بن يزيد، ومسروق وابن قيس...، وقد بقي التفسير في هذا العصر بالتلقي والرواية، والتدوين إنما بدأ في عصر التدوين في أواخر دولة بني أمية، وأوائل عصر الدولة العباسية، ومنهم من ولقد اشتهر جماعة برواية التفسير المنقول عن النبي صلى الله عليه وسلم، والمنقول عن الصحابة والتابعين، ومن أشهرهم يزيد بن هارون السلمي، وشعبة بن الحجاج، ووكيع، وسفيان بن عيينة، وعبد الرزاق بن همام، ولكن تجدر الإشارة إلى أن تفاسيرهم لم تصلنا، بل نقل فقط ما كان مسندا بكتب التفسير [15].

ولقد جاء نفرٌ بعد ذلك وجعلوه علما منفصلا، ففسروا القرآن الكريم بترتيب السور والآيات، ومنهم ابن جرير الطبري، وابن ماجه، والنيسابوري، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه، وتفاسيرهم مرفوعة بالسند إلى رسول الله، ثم جاء نفر وعملوا على ما عمله سابقوهم، فكان تفسيرهم بالمأثور ولكنهم اختصروا الأسانيد، وجمعوا الأقوال من هنا ومن هناك دون نسبتها إلى أصحابها، مما سبب اللبس، ومع ظهور العلوم والاختصاصات الدقيقة أصبحَ كلٌّ منهم يفسر على حسب علمه وتخصصه، منهم أصحاب الفقه، عني بالأمور الفقهية مثل الجصاص والقرطبي، ومنهم من عني بالتاريخ، كالثعالبي والخازن، ومنهم من جعل علم الفلسفة مثل فخر الدين الرازي، ومنهم المتصوفة وجعلوه بالمعاني الإشارية مثل ابن عربي، وبهذا ظهر التفسير بالرأي وطغى بتلك الفترة على التفسير بالمأثور.

الفرع الثاني: الفرق بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي

التفسير بالمأثور: وهو التفسير الذي لا يخرج عن ما صح من المنقول، والمقصود بذلك تفسير القرآن بالقرآن، أو القرآن بالسنة، والقرآن ما رُوي عن الصحابة، وبعد ذلك ما روي عن التابعين، ولا يجتهد صاحبه ليبين معنى من غير أصل ومرجع، وحكم العمل بهذا التفسير، أنه يجب اتباعه والعمل به لأنه منقولٌ إلينا من الثقات، ومن أشهر

كتب التفسير بالمأثور تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، وتفسير ابن جرير الطبري، وابن كثير، والثعالبي، وتفسير أبي ليث السمرقندي، والشوكاني ... وغيرهم الكثير (16).

التفسير بالرأي: وهو التفسير الذي يعتمد عليه المفسر على رأيه الشخصي، وهناك الكثير منه لا يتفق مع أحكام الشريعة، ومنهم من يروج لمذهبه وعقيدته وجماعته، ومن الذين حكموا العقل مثلا المعتزلة، وحكم العمل بالتفسير بالرأي أنه حرامٌ ولا يجوز العمل به إن لم يكن له أصل بالشريعة، ومن أشهر كتب التفسير بالرأي تفسير عبد الجبار، وتفسير عبد الرحمن بن كيسان، والبيضاوي، والزمخشري، والنَّسَفي، وفخر الدين الرازي ... وغيرهم الكثير (17).

الفرع الثالث: مناهج المفسرين بالعصر الحديث

يذكر الأستاذ الدكتور فضل عباس في كتابه التفسير والمفسرون، أن المفسرين في العصر الحديث نهجوا مناهج عدة في تفسيرهم للقرآن الكريم، بل وظهرت مدارس لهم في التفسير، ولم يكونوا كلهم في منهج واحد، ومن أهم مدارس التفسير في العصر الحديث ما يلي:

1. **المدرسة الأولى بالتفسير في العصر الحديث هي**: المدرسة العقلية الاجتماعية، ومن أهم رواد هذه المدرسة: الشيخ محمد عبده، والسيخ محمد سعيد رضا، والشيخ محمد شلتوت، والشيخ عبد القادر المغربي ... وغيرهم. ولو تناولنا الشيخ محمد عبده وهو من أبرز من يمثلها لقلنا: أن الشيخ له جهد كبير في التفسير، وقد حرص على الأمة ونهضتها، ومن أشهر مؤلفاته: "رسالة الواردات"، والتي ظهر فيها نزعته الصوفية والفلسفية، وكتاب: (حاشية على شرح الجلال الدواني للعقائد العضدية)، الشيخ اشتهر عنه بالإضافة إلى أسلوبه المتبع في تفسير القرآن الكريم، ومنهجه القويم، اشتهر عنه أيضا آراؤه التي جعلها بين طيات تفسيره، والشيخ محمد عبده يتمتع بالفكر الثاقب والعقيدة الراسخة، وبسبب ذلك ألمَّ بثقافات متعددة مما انعكس ذلك على تفسيره، ومن آرائه أن كتب التفسير التي سبقته مع جلالة قدرها وقدر أصحابها، إلا أنها لا تفي بالغرض المطلوب منها، لأن أصحابها كان يغلب عليهم الميل لتخصصه ولرأيه، ومع هذا لم يغفل الشيخ كتب من سبقه، بل كانت في مقدمة مصادره ومراجعه، ولقد نظر الشيخ للسورة القرآنية كأنها وحدة واحدة، فلم يكن يتناول السورة على أنها أجزاء منفصلة عن بعضها، كما عرف عنه يُسر العبارة وسهولة الأسلوب، فقد ابتعد عن الكلام الصعب والتقعر في الكلام، وابتعد عن المعاني الغريبة المستكرهة، ونلمس عليه أنه لم يتجاوز النص القرآني في المبهم من القرآن الكريم، فمنهجه يقوم على الدقة في الفهم، وقد حارب الشيخ الإسرائيليات، وحرص حرصا شديدا على الابتعاد عنها في التفسير، وكما وكان حريصا على أن يبين كيفية هداية القرآن الكريم، فقال أن الهداية هداية وجدان وإلهام طبيعي فطري، وهداية حواس ومشاعر،

وهداية عقل، وهداية دين، وكان يحرص الشيخ على دحض الشبهة أينما وردت، وحرص على تقويم تفسيره (18).

2. **والمدرسة الثانية في التفسير للعصر الحديث**: المدرسة العلمية في التفسير، وتدعى أيضا بالمدرسة العلمية الكونية: ومن أبرز روادها الشيخ طنطاوي جوهري، صاحب كتاب الجواهر في تفسير القرآن، والشيخ طنطاوي كان عالما، اشتغل بالتفسير، والعلوم الحديثة والحياتية، وهو من الشرقية في مصر، له عديد من المؤلفات منها: جواهر العلوم، النظام والإسلام، التاج المرصَّع، نظام العالم والأمم، الحكمة والحكماء، وميزان الجواهر في عجائب هذا الكون الباهر ...، وغيرها الكثير، ومن عناوين الكتب الضخمة، نلمس ضخامة علمه وغزارته، وكتابه جواهر التفسير يقع في ستةً وعشرين جزءا، ويتحدث عن كتابه فيقول: هذا الكتاب كتاب ضخم، جعلت فيه حكمة اليونان، وآبائنا أيام جدهم، وحكمة العلماء في أوروبا، ونماذج من التاريخ، وأحوال الإسلام العامة في زماننا، وهذا الكتاب يحتوي كثيرا على التَّشَعُّب والاستطرادات، والشيخ في منهجه، يورد مقدمة للسورة التي يريد تفسيرها، ثم يقوم بتقسيم هذه السورة إلى أبواب، ثم يقسم هذه الأبواب إلى مباحث، أسماها مقاصد وفصول، وذلك على حسب ما يراه مناسبا، وهذه طريقة مشهورة عند المفسرين المحدثين، ونرى أن يضمن تفسيره أقوالا لعلماء غربيين، ونرى في تفسيره كثرة الصور، كصورة النملة، والعنكبوت، و الفراشة، وقد ولع الشيخ بحديثه عن الأرواح، والقارئ في تفسيره لا يشعر بالملل والسآمة من غزارة علمه وأسلوبه الجاذب للعقول والقلوب، كما ويستخدم أسلوب القصة في تفسيره، قصة موسى عليه السلام والرجل الصالح، وقصة الخضر، ونراه يجنح إلى الخيال الذي يخدم التفسير، وهذا إنما هو ليقرب الصورة للقارئ الكريم (19).

3. **والمدرسة الثالثة للتفسير عند المحدثين**: المدرسة التربوية الوجدانية: وهي مدرسة ظلال القرآن الكريم، والتي يمثلها سيد قطب في تفسيره في ظلال القرآن، ومما يذكره الشيخ فضل عباس: أن سيد قطب كان يلتزم بآراء الجمهور، فلم يسر وراء النظريات العلمية، بل يحكم على النص ويجعله الأساس في تفسيره، وقد حوى تفسير الظلال كما ذكر عباس طابعا تربويا وجدانيا، وما ورد من صحيح الفقه، والظلال كان نسيجا ففيه خلجات نفس، وصرخات فؤاد، وصاحب الظلال صاحب نزعة عقلية قوية، وظهر ذلك جليا في جنبات تفسيره، وقد أثبت أن القرآن الكريم لا يتنافى مع العقل، وكان منهجه في التفسير بأن قصد عرض القرآن الكريم بفكر جديد، وبتفسير جديد، وكان يوضح ما يحوي القرآن الكريم من أنظمة اقتصادية وسياسية واجتماعية، ولقد كان يأتي بالمقدمة، فيحللها ويأتي بمقصدها، ولا يترك فرصة في آية إلا ويفرغ عواطفه وأحاسيسه الجياشة فيما يخدم التفسير، وكان مقدماته طويلة، منها ما تجاوز الخمسين صفحة، وبعد ذلك يقسم السورة إلى أبواب وفصول كغيره، وجعل تفسيره على حسب ترتيب المصحف الشريف، ويركز صاحب الظلال على

العقيدة ومنهجها، ويوضح تصورا عن الإسلام، ولقد أسهب كثيرا مما يجعل القارئ يكاد أن يجزم أنه لم يترك كبيرة ولا صغيرة إلا وتحدث عنها، ولم يهتم صاحب الظلال بالخلافات الفقهية، ولم يعنَ كثيرا في التحليل اللفظي، وقد ذكرنا أن من خصائصه الإسهاب، ولا يخفى على الجميع الشدة والعنف في بعض الأحيان في آرائه، ولقد أَثَّر أسلوبه الأدبي عليه في بعض الألفاظ والعبارات، ومما يميزه الإيمان الجازم بالنص القرآني، ولم يجعل في تفسيره شيئا من الإسرائيليات، بل وكان له موقف منها بأنه لا يجيز أن يستشهد أحد بالعهد القديم، ويقصد بذلك الإسرائيليات، فهناك بعض المفسرين لم تخلوا تفاسيرهم منها، سواء بالسهو أم بالعمد، ولا يفهم من هذا اتهام أحد من المفسرين لا سمح الله، لكن الذاكر لها تراه بين ذلك، وإنما ذكرها من أجل أن يوسِّع مدارك القارئ، ومما يميزه عدم مخالفته للمفسرين السابقين، لكن لا ننكر أن الكثير اتهم سيد قطب التشدد والتعصب وغير ذلك، ولكن في النهاية كلٌّ يؤخذ منه ويُرَدْ [20].

4. **والمدرسة الرابعة التي ذكرها الشيخ فضل عباس مدرسة الجمهور**، ومن أبرز روادها وكتبها: الشيخ حسنين محمد مخلوف، والشيخ حسن البنا، وتفسير القواسمي، والتفسير الوسيط، والشيخ محمد الخضر حسين، والشيخ السعدي ...، وغيرهم الكثير، وسنتناول كتاب محاسن التأويل للشيخ محمد جمال الدين القاسمي مثالا على هذه المدرسة، والشيخ القاسمي هو محمد جمال الدين أبو الفرج المعروف بالقاسمي، وهو من دمشق، وكان اعتماد الناس في عصره على الكتاتيب، فلم يكن في انتشار للمدارس، يقول الشيخ محمد رشيد رضا عنه: أنه من أكمل من رأى في علمه وأدبه وأخلاقه وشمائله...، وله مؤلفات كثيرة منها: السفينة، الأنوار القدسية على متن الشمسية، وبديع المكنون في مسائل الفنون، والطالع المسعود على تفسير أبي المسعود ...، وغيرها الكثير، وتفسيره ضخم جدا حيث بلغ سبعة عشر جزءا، ويغلب عليه طابع الجمع، فيمهد لتفسيره في ثلاثمئة وخمسين صفحة، ويجعل فيه قواعد مهمة، ومنها: قاعدة في معرفة سبب النزول، وقاعدة في الناسخ والمنسوخ، وقاعدة في قصص الأنبياء ... وغيرها، ومن ميزاته أن اعتنى بالقضايا اللغوية، واعتنى بالقضايا النحوية، واعتنى بالقضايا البلاغية، وكذلك اعتنى بالقضايا العلمية، ولقد أحسن صنعا في حين أسمى تفسير محاسن التأويل، وكان يُدخل رأيه فيما يخدم التفسير، وكان يسكت عن نقد بعض ما ينقل من الآراء ويورد بعض الآراء المتناقضة، ومما يؤخذ عليه أنه كان كثير الاستطراد [21].

وإذا أتينا إلى نسبة تفسير النابلسي إلى هذه المدارس، لوجدنا الشيخ النابلسي أفاد منها كلها، فهو يحشد الآيات والأحاديث والقصص والحكايات التي تخدم تفسيره، فإذا ذكرنا المدرسة العقلية الاجتماعية، فهو كذلك، وإذا ذكرنا المدرسة العلمية في التفسير نراه أيضا أفاد منها، وإذا ذكرنا المدرسة التربوية الوجدانية، فنرى دروسه وتفسيره كثيرا ما يخاطب الأحاسيس والمشاعر والعقول والقلوب التي في الصدور، وإذا ذكرنا مدرسة الجمهور لرأينا أن النابلسي كذلك أفاد منها، ولم يخالف أحدا بتفسيره، بل حاول الإفادة من كل من سبقه من

المفسرين، ومعروفٌ عن الشيخ النابلسي اعتداله وتقبله للرأي والرأي الآخر، كما ومن محاسنه أنه يحترم الآخر حتى لو خالفه، ويُذْعن للدليل ولا يخالفه، كما ويوظف الإعجاز العلمي بشكل كبير في مستويات عدة، وفي مواضيع متعددة كذلك.

المبحث الثالث: منهج الشيخ النابلسي بالتفسير

المطلب الأول: تفسير النابلسي تنظيرا وتطبيقا

الفرع الأول: منهج النابلسي في التفسير

لقد أوضح الشيخ النابلسي في مقدمة كتابه منهجه بالتفسير فقال: أنه بذل جهدا كبيرا جدا في إنجاز هذا التفسير حيث إنه لم يعتمد على تفسيره فقط، وإنما كان يُعِدُّ ويُحَضِّرُ من تفاسير كثيرة لدروسه، ومنها أنه اعتمد على تفسير الطبري، والرازي، وابن كثير، والظلال، والشعراوي، ومحاسن التأويل، وغيرها الكثير من كتب التفسير مما يفتح الآفاق أمامه في التفسير، ثم بعد هذه التفاسير نراه اجتهد في فهم آيات الله تعالى الكونية، من كواكب، ونجوم، وبحار، ومحيطات، وغابات، وإنسان، وحيوان، كما أنه كان يعتمد إلى جانب ذلك إلى موسوعات وكتب عالمية تتحدث عظمة الله تعالى في خلقه سبحانه وتعالى، وقد ذكر أصل هذا التفسير دروس كان يلقيها بشكل أسبوعي في مسجد الشيخ عبد الغني النابلسي بدمشق، وكان حريصا على تسجيل تلك الدروس على أشرطة الكاسيت المتوافرة في ذلك الوقت، ولقد قام مجموعة من طلابه بإفراغ هذه الأشرطة على الورق، وبعد أن أفرغها طلابه على الورق قام بمراجعتها وإقرارهم عليها، ليوافق المطبوعُ المسموعَ. والشيخ النابلسي كان يذكر الآيات الكريمات فيفسرها بالمأثور، فيأتي بتفسيرها بالقرآن، ثم يأتي ويفسرها بالسنة النبوية الشريفة، ثم بعد ذلك يأتي بالقصص والحكايات التي تناسب الموقف، ويشرحها شرحا مستفيضا، ويتوسع ويطنب، ويذكر ما بها من إعجاز علمي، ما يتعلق بالإنسان، أو الحيوان، أو النبات، أو الجماد، وحتى البحار والمحيطات، والكواكب، والنجوم، ... وغير ذلك، فلا يتوقف فقط عند تفسيرها بما ورد من المأثور، بل يتجاوز ذلك بتبسيط تفسيره ليناسب جميع شرائح المجتمع.

ومن جميل ما يقوم به النابلسي في تفسيره وحتى في دروسه، أنه يحاول أن يجمع كل ما يستطيع من آيات وأحاديث وحكايات، ويوظفها توظيفا جميلا يخدم النص، كما ويفسر القرآن الكريم بما ورد عن المفسرين، فقد ذكرنا أنه لا يعتمد فقط على ما ورد من الآيات الكريمات والحديث الشريف وآراء الصحابة والتابعين، بل يتوسع كثيرا، وهو يرجع لأمهات الكتب والتفاسير السابقة، وأما الحديث الشريف إذا ذكره في معرض حديثه، فهو يخرجه ذاكرا درجة صحته وراويه ومصدره، ولكن في بعض المواقع يكتفي بذكر درجة صحته بقوله: وقد ذُكِرَ، ولقد جاء، بالحديث الصحيح كذا وكذا، كما يتطرق لعدة روايات للحديث ولا يكتفي برواية واحدة ويجمع بينهما بأسلوب جميل رائع محبب من القلوب والعقول، وفي بعض الأحيان يقول: وقد جاء في رواية النسائي، أو ذكر ابن

ماجه، دون أن يذكر درجة صحته، لكنه من باب العدل والأمانة العلمية أنه يتحرى الصحيح، ويذكر ما هو أقل من ذلك موضحا درجة الصحة. أما عنايته بالنحو واللغة العربية والبيان، فتراه يُعَرِّف ما يذكر تعريفا من المعاجم، فيذكر ويقول: ولقد جاء في لسان العرب، وفي تاج العروس، وكما يتطرق لكثير من القضايا النحوية والبلاغية والمعاني، ويأتي بإعجازها العلمي، ولا يكتفي بذكرها، فإذا كانت الآية عن الإنسان، ذكر الإعجاز العلمي في بعض أعضائه التي تناسب الموقف، وإذا تحدثت الآية عن الكواكب والنجوم، ذكر بعض الإعجاز عن الكواكب والنجوم، وكذلك يفعل فيما ورد عن الجبال، والبحار، والمحيطات، والحيوان، والهواء، والماء، وتراه وهو يذكر ذلك، وكأن الكلام ينبع منه نبعا، من شدة تمكنه من الموضوع الذي يتكلم فيه، وكما يستشهد بكثير من الأبيات الشعرية، والشواهد النحوية [(22)]، فالدكتور النابلسي يعد من أهل اللغة ومن عشاقها، فتراه كثيرا ما يوظفها في دروسه وتفاسيره.

الفرع الثاني: من آيات الله تعالى في خلق الأرض

من الأمثلة على منهج تفسير النابلسي، ما ذكره في تفسير آيات ذكرت في خلق الأرض، وبينت قدرة الله تعالى وعظمة الله تعالى في خلق الأرض، فبدأ أولا بذكر الآيات، قال تعالى: "أم نجعل الأرض مهادا، والجبال أوتادا" [سورة النبأ الآية: 6+7]. وقال تعالى: "وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراتا" [سورة المرسلات الآية: 27]. وقال تعالى: "أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت" [سورة الغاشية الآية: 17- 19] [(23)]. فنرى الشيخ النابلسي إذا أراد تفسير آية حشد الآيات المشابهة والقريبة منها التي تتحدث في نفس الموضوع، وأخذ يفسر، ويجمع، وتراه يشرح ذلك شرحا علميا، وتراه يعدد وظائف الجبال وأهميتها، ووظائف التربة والحجارة والأشجار وأهميتها على الأرض، وتراه يعرف الجبل، ويستنبط من الآيات ما يدل على ذلك، ويأتي بالأدلة العلمية على ذلك مما لا يدع مجالا للشك، فمثلا قال عن الجبل أنه وتدٌ مغروس في أعماق الأرض، ويبلغ طوله تحت الأرض ضعفي طوله فوق الأرض، فإذا كان الجبل مثلا ارتفاعه مئة متر، فاعلم أن هذا الجبل له من جنسه مئتي متر تحت الأرض، وتراه يتحدث عن الأرض، وطبقاتها، وطياتها، وتراه يتحدث عن الزلازل والبراكين، وتراه يذكر جبال الهملايا، وأن ارتفاعها يبلغ ثمانية آلاف وثمانمئة وثمانين مترا، ويقول هذا هو الثلث الظاهر، والذي تحت الأرض هو ثلاثا هذا الرقم الكبير، ويذكر مثلا أن الجبال التي تكون قريبة من الساحل تكون خلفها منطقة جافة، وتكون منطقة هادئة لا رياح شديدة فيها بالعادة، فالجبال تحجز التيار الهوائي، ومما يروى في خلق الجبال حديث فيه مقال، وتجدر الإشارة أن النابلسي لم يذكره لربما لضعفه، ولكننا نذكره ونبين ضعفه من باب فضائل الأعمال وبيان عظم خلق الله تعالى، وهو عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لما خلقَ اللَّهُ الأرضَ جعلت تميدُ، فخلقَ الجبالَ، فقالَ: بِها عليها فاستقرَّت، فعَجِبتِ الملائِكةُ من شدَّةِ الجبالِ. فقالوا: يا ربِّ، هل من خلقِكَ شيءٌ أشدُّ منَ الجبالِ؟ قالَ: نعَمُ الحديد.

فقالوا: يا ربِّ، فَهل من خلقِكَ شيءٌ أشدُّ منَ الحديدِ؟ قالَ: نعمُ النَّارُ. قالوا: يا ربِّ، فَهل من خلقِكَ شيءٌ أشدُّ منَ النَّارِ؟ قالَ: نعمُ الماءُ. قالوا: يا ربِّ فَهل في خلقِكَ شيءٌ أشدُّ منَ الماءِ؟ قالَ: نعمُ الرِّيحُ. قالوا: يا ربِّ فَهل في خلقِكَ شيءٌ أشدُّ منَ الرِّيحِ؟ قالَ: نعم ابنُ آدمَ، تصدَّقَ بصدقةٍ بيمينِهِ يخفيها من شمالِهِ" (24). وفي هذا الباب أيضا يلاحظ في تفسير هذه الآيات أن النابلسي ضمن تفسيره كثيرا عالمين وعلمين من أعلام بل وعمالقة التفسير، وهما ابن كثير، والقرطبي.

الفرع الثالث: من آيات الله تعالى في المخلوقات الصغيرة

من الأمثلة على تفسير النابلسي: استعراضه المخلوقات الصغيرة جدا، التي كثيرٌ منا يحتقرها، ويظنُّها صغيرة لا فائدة منها، وأنها بسيطة في خلقها، ومن ذلك تحدثه في تفسيره لسورة الحج في قوله تعالى: "يا أيها الناسُ ضُرِبَ مثلٌ فاستمعوا له، إنَّ الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له، وإنْ يسلبهُم الذبابُ شيئا لا يستنقذوهُ منه، ضَعُفَ الطالبُ والمطلوبُ" [سورة الحج الآية: 73]. لقد تناول النابلسي في تفسيره موضوع الإعجاز العلمي بالذبابة والبعوضة، وبالحقيقة يجب الاعتراف أن الشيخ النابلسي كان موفقا باختياره أن يضمن تفسيره الإعجاز العلمي في المخلوقات الصغيرة، فإذا رأى الإنسان هذه المخلوقات الصغيرة وما فيها من عظم خلق الله تعالى عرف أن آيات الله في الإنسان، والفضاء، والبحار والمحيطات ... أكبر، وأول ما بدأ النابلسي حديثه في تفسير هذه الآية تحدث أن الإنسان يصرف نظره عن مثل هذه المخلوقات الصغيرة ظنًّا أنه لا قيمة لها، وأنها ضعيفة لا تقوى على شيء، وفي الحقيقة لا يوجد مخلوق خلقه الله تعالى، إلا وقد جعل له وظيفة، وجعل له نقاط للقوة ونقاطا للضعف، بالإضافة إلى أن الذباب والبعوض مزعج للإنسان فلا يلتفت له.

وأول ما يبدأ يقول أن هذه الذبابة أو البعوضة المستقذرة في شأن تكاثرها، لو أنك ذهبت إلى موطنها الذي تعيش فيه، وقتل كل البعوضات إلا بعوضةً واحدة، لاستطاعت هذه البعوضة أن تُنْشئ جيلا جديدا، فهي تضع آلاف البيوض، وكذلك لو أنك وضعت دواء على النباتات ورششتها من أجل الحفاظ على النبتة والقضاء على الذبابة، لقضيت على جيلها فعلا، لكن ستنتج جيلا جديدا يقاوم هذا الدواء وهذا الرش، لذلك أهل الاختصاص في الزراعة يقولون إذا رششت مزرعتك بنوع من الدواء ولم تقض على كل الحشرات، لا تحاول أن ترشَّ نفس المكان مرة أخرى بنفس النوع، لأن الحشرات تكون قد عملت لنفسها مناعة منه، فينبغي أن ترش من نوع آخر، وكذلك لو أن نوعا من الذباب أو البعوض مات من البرد مثلا، لأنتج هذا البعوض مما بقي منه ذبابا وبعوضا يقاوم هذا البرد، أو الحر، ثم ترى الشيخ النابلسي يأخذ ويصف حركة الذبابة، وأن أحدث الطائرات الحديث لا تستطيع القيام بعملها وما تقوم فيه قبل وأثناء الطيران، فالذبابة التي لا قيمة لها عند الإنسان، تستطيع الوقوف على السقف، والطائرات لا تستطيع ذلك، والحشرات تتنقل من سقف إلى سقف، ومن زاوية قائمة لزاوية مثلها أ مختلفة عنها، وتراها فجأة على الأرض، ثم تطير على الحائط، بسرعة ودقة في الطيران والهبوط، ثم نراه يذكر

في معرض الشرح لهذه الآية قول الله تعالى في سورة البقرة: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (26)" [سورة البقرة: 26]. فالنابلسي صاحب فكر عميق، وبذكره هذه الآية الكريمة تكلم بها كلاما جميلا جدا، وذكر الإعجاز العلمي بالذبابة والبعوضة، وما ترك مجالا لا للشك، ولا لأحد بأن يقول مثلا: وما هذا المخلوق الضعيف، الصغير، وما هو الإعجاز فيه، فذكر وأطنب بالموضوع، وكان كلامه يلامس العقل والقلب مع الأدلة والبراهين الدامغة، فكان تفسيره لهذه الآية من أجمل ما قيل فيها عند المتقدمين وعند المتأخرين، ومن ضمن ما قال: وضعت البعوضة تحت مجهر إلكتروني، يكبر أربعمائة ألف مرة، فإذا في رأسها مئةُ عين، في فمها ثمانية وأربعون سنا، وفي صدرها قلبٌ ثلاثة، قلبٌ مركزي، وقلب لكل جناح، وفي كل قلب أذينان، وبطينان، ودسامات، وتملك البعوضة جهازا لا تمتلكه الطائرات، تملك جهاز استقبال حراري، فهي لا ترى الأشياء لا بألوانها ولا بأشكالها، ولا بأحجامها، ولكن ترى الأشياء بحرارتها فقط، في الشتاء تكون حرارة الغرفة (5)، والطفل حرارته الطبيعية (37)، فلا ترى إلا الطفل، معها جهاز تحليل دم، فليس كلُّ دمٍ يناسبها، تأخذ عيّنة، فإن أعجبها أخذت من دمه، وإن لم يعجبها تركته وبحثت عن غيره، قد ينام أخوين على سرير واحد، فتأخذ عينة منهما، فترى واحدا لربما لم يعجها دمه، فتذهب إلى الآخر فيعجبها دمه، فتأخذ منه، الأول لم تلسعه، والثاني ملأته لسعا، معها جهاز تحليل، ومعها جهاز تمييع دم لأن دم الإنسان سمج، أي ثقيل أو كثيف، لا يسري في خرطومها، ومعها بالإضافة إلى ذلك جهاز تخدير حتى لا تقتل من تلسعه، تخدِّرهُ، ولما تنتهي من مص الدم من جسم الإنسان، بعد عدة ثواني يذهب مفعول المخدر، فيحسُ الملسوع بلسعة البعوضة، فتراه يضربها بكل قوته على يده أو على وجهه، وهي في سماء الغرفة تضحك عليه، معها جهاز تحليل، معها جهاز تخدير، جهاز تمييع، برأسها مئة عين، بفمها ثمانية وأربعون سنا، صدرها ثلاثة قلوب، ومعها جهاز استقبال حراري، هذه البعوضة، أما خرطومها، ففيه ستةُ سكاكين، أربعةُ سكاكين لإحداث جرحٍ مربع، وسكينان تلتئمان على شكل أنبوبٍ لامتصاص الدم من الجسم، وفي أرجل البعوضة مخالب إذا وقفت على سطحٍ خشن، ومحاجم إذا وقفت على سطحٍ أملس، هذا خلق الله، فأروني ماذا خلق الذين من دونه، إنَّ الله لا يسحيي أن يضرب ما بعوضةٍ فما فوقها، والذي فوقها مخلوق أعظم منها.

أما عن جناحي البعوضة، وحديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي يقول فيه إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه ثم لينزعه، فإن في أحد جناحيه داء والأخرى شفاء، وقد أثبت العلم الحديث أن أحد الجناحين يكون عليه مادة وهي عبارة عن ترياق للجراثيم التي تكون عالقة بهذه الذبابة، فإذا أنت غمست ذلك بالشراب حصلت السنة، وتجنبت شر الجراثيم، والذباب له فائدة، فلا يعقل أن يخلق الله تعالى مخلوقا دون فائدة له في هذه الدنيا، فالذباب والحشرات عند تنقلها من نبتةٍ إلى نبة فإنها تساعد النباتات والأشجار على عملية التلقيح،

وكذلك تنقي الهواء لأنها تقضي على النباتات الفاسدة المتفسخة، كما أن البعوض دليل على عدم النظافة، فأينما وجد فكأنما هو دليل للإنسان أن اتقي هذا المكان وتجنبهُ، لأنه مليءٌ بالجراثيم، والدليل وجود هذا البعوض، والذبابة مخلوق غايةٌ الدقة، وهي تحس بالألم، ولها دماغ ويبلغ دماغها واحد من مليون جزء من الغرام، وهو يعمل بكفاية عالية، والذباب له مئات الألوف من الأنواع، فمنها الضار ومنها النافع، منها المفترس، ومنها الأليف، كالنحلة تمتص الرحيق، فلا يمكن مقارنتها بالبعوضة التي لا تقف إلا على الأوساخ [25].

الشيخ النابلسي في هذا الموضوع أجاد وأفاد، ولم يترك شاردة ولا واردةً فيما يخص الذباب إلا وذكره، وقرن بعض الآيات مع بعضها، وجاء وفسر القرآن بالقرآن، ثم جاء بالأحاديث النبوية الشريفة التي تحدث عن نفس الموضوع، ثم ذكر رأي العلم، بل ذكر ذلك وبدقة حيث تكلم عن أجزاء البعوضة، وما يقدمه كل جزء، ومن ثم تكلم برأيه الشخصي الذي يخدم التفسير، كما نرى أنه كان يأتي أيضا بالطرف والنكات، التي لا تخرج عن سياق الموضوع بأسلوب هادئٍ جزل محبب من القلوب والعقول، وهذا دليل على سعة اطلاع الشيخ النابلسي، كما أنه لم يغفل من كان فبله من المفسرين.

المطلب الثاني: التطبيق العملي على سورتي مريم والواقعة

وفي هذا المطلب اخترت سورتين للتطبيق عليهما من تفسير النابلسي، وسيتم تتبع الآيات الكريمات، وبيان منهج الدكتور النابلسي الذي تتبعه في تفسير القرآن الكريم، والذي تم الإشارة إليه في المبحث السابق، وهاتين السورتين هما سورتي: (مريم، والواقعة)، ونموذج من تفسير النابلسي على هاتين السورتين الكريمتين من كتاب الله تعالى، لكن بداية يجب علينا التعريف بالسورتين الكريمتين، وكما يلي:

الفرع الأول: سورة مريم [26]

وسميت بهذا الاسم على اسم مريم عليها السلام، وهي السورة الوحيدة التي سميت باسم امرأة في القرآن الكريم، كذلك لم يذكر اسم امرأة في القرآن الكريم صراحة إلا اسم مريم عليها السلام، وقد ذكر أسماء نساء أخريات لكن تعريضا لا صراحةً، مثل قول الله تعالى في سورة التحريم: "ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط" [سورة التحريم الآية: 10]، لم يذكرهما صراحةً، وبنفس السورة قال تعالى: "وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون" [سورة التحريم الآية: 11]، ولم يذكرها صراحة أيضا، وذكر مريم صراحة يدل على عظم قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام، وسورة مريم من السور المكية، وعدد آياتها ثمانية وتسعون آية، ومن اللافت في سورة مريم أنها سورة مكية في كل آياتها باستثناء الآيتين: (58،71) فهي مدنية، وسورة مريم هي السورة التاسعة عشر في كتاب الله تعالى، وهي في الجزء السادس عشر من القرآن الكريم، وسورة مريم احتوت على عدة قصص، فقد بدأت بقصة زكريا عليه السلام كيف دعا ربه دعاء خفيا بأن يجعل له ذرية، وكيف رزقه الله بيحيي عليه الصلاة والسلام، ثم تلتها قصة مريم عليها السلام، وكيف جاءها جبريل عليه السلام، وكيف رزقها الله تعالى الولد من

دون زواج، وكيف اتهمها قومها بالفاحشة، وكيف أنطق الله عيسى عليه السلام بالمهد ليشهد على براءة أمه، ثم جاءت قصة إبراهيم عليه السلام كيف كان يدعو أباه لعبادة الله تعالى وحده ولم يستجيب لدعائه، ثم ذكر الله تعالى أبياء عصتهم أقوامُهُم، وفي أواخر السورة استنكار كيف يدعي بعض البشر بأن الله اتخذ ولدا، وهذا القول لا يجوز أبدا، لا ينبغي له سبحانه، عياذا بالله من هذا الكلام، وسبب نزول هذه السورة الكريمة كما ورد في كتب التفسير، أن الوحي تأخر نزوله على النبي صلى الله عليه وسلم، فدعا الله تعالى أن يأتيه جبريل، فجاءه جبريل، فقال له جبريل عليه السلام ما كلفه به ربه جل وعلا: "وما نتنزلُ إلا بأمر ربك، لهُ ما بين أيدينا وما خلفنا، وما بين ذلك وما كان ربك نسيا" [سورة مريم الآية: 64]، ومن أسباب نزولها أيضا قال تعالى: "أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتيَنَّ مالا وولدا" [سورة مريم الآية: 77]. نزلت هذه الآية بحق أحد كفار قريش وهو العاص بن وائل السهمي، حيث كان لأحد المسلمين مالا عنده، وهو الصحابي الجليل خباب بن الأرت، فطلبه خباب ماله، فأنكر ذلك وقال لا أعطيك إلا بأن تكفر بما جاء به محمد، عليه الصلاة والسلام، فرفض خباب ذلك، فقال: لا أكفر حتى تموت وتبعث، فسخر العاص منه، وقال له: إنني إذا بعثت بعد موتي سيكون لي مالا وولدا كثيرا، عندها أعطيك مالك، فنزلت الآية الكريمة.

ويبدأ الله تعالى سورة مريم بالحروف المقطعة (كهيعص)، وكثير من المفسرين يتوقف عند هذه الحروف، ويقولون الله أعلم بمراده سبحانه وتعالى، وبعضهم قال: إن الله تعالى ذكر هذه الحروف ليقول للناس أن هذا القرآن المعجز من هذه الحروف، فأتوا بمثله إن كنتم صادقين، هاتوا سورة مثله، هاتوا آية واحدة على مستوى القرآن الكريم، لن تستطيعوا ذلك. ثم ذكر القصة الأولى وهي قصة زكريا عليه السلام، فقال تعالى: "ذكر رحمت ربك عبدة زكريا"، فقصة زكريا رحمة من الله بنبيه عليه الصلاة والسلام، فذكر القصص بالقرآن إنما هو من أجل العبرة والعظة، "إذ نادى ربه نداء خفيا"، أي بصوت غير مسموع، بصوت منخفض، والمناجاة تكون بالقلب، والنداء يكون بالصوت المرتفع، نادى ربه فقال: "إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا"، يا رب قد كبرت سني، ووهن ، وضعف، وشبه الشعر الأبيض وانتشاره بالرأس، كالنار التي تشتعل بالهشيم، كناية عن كثرته وسرة انتشاره، وهو دليل على الضعف والتقدم بالسن، يا رب لقد مننت علي بأنني كلما دعوتك استجبت لي فاستجب لي الآن كذلك في هذه المرة، فدعا ربه بتذلل، وبتواضع، ومسلم بأنَّ الله تعالى أمره بين الكاف والنون، إذا أراد لشيء أن يقول له كن فيكون، وكان زكريا قد كفل مريم بنت عمران بعد أبويها، فلما رأى صلاح هذه الفتاة، وطهارتها، ونقائها، دعا الله بالولد، ليرثه ويرث من آل يعقوب، ولكن المقصود ليس إرث المال، ولكن المقصود إرث النبوة، بأن يرث عنه الفقه وأمور الدين، ويعلمها لمن بعده، فزكريا عليه السلام كان يخاف على قومه من بعده، فدعا الله تعالى بهذا الغلام ليكمل مسيرة النبوة، ويا رب اجعله رضيا، لكن قال: "وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرا"، هو كبير في السن، وهي كبيرة، وبالإضافة إلى ذلك هي عاقر، حتى لو كانت شابه فهي عاقر، فكأن

المعجزة أصبحت معجزتين، معجزة الحمل من رجل شيخ كبير ومن امرأة كبيرة هرمة وعاقر في نفس الوقت، فبشره الله تعالى بيحيي : "يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا"، وزكريا يعرف أنه كبير وزوجته، ولكن قال: "رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا"، فقال الله تعالى: "قال ربك هو علي هين"، أي الذي خلق هذا الكون لا يعجزه هذا الخلق، "قال رب اجعل لي آية"، أي علامة ودلالة عند قرب مجيء الغلام، قال له: "آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا"، أي أن الله تعالى سيربط لسانك ثلاثة أيام، فلا تكلم الناس أبد، ولكن لسانك لن يربط عن ذكر الله تعالى، ثم جاء يحيى، "يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا"، والمقصود بالحكم: الحكمة، وإصابة العلم، وكان عنده علامات الرحمة والإيمان، ولم يكن قاس القلب أبدا، "وزكاة وكان تقيا"، وزكاه الله تعالى، وطهره، وجعله طيب النفس، وكان تقيا، "وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا"، بالإضافة لصفات الكمال، وصفات التهيئة للنبوة، أعطاه الله تعالى صفات بأن يكون بارا بوالديه، ولا يعصيهما أبدا، ولم يكن جبارا على خلق الله تعالى، "وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا"، والسلام هو الطمأنينة، فلا منغص له وعليه، فكان هذه القصة نبراسا وهادية لنا، ودليلا على قدرة الله تعالى.

ثم جاءت القصة الثانية وهي قصة مريم عليها السلام وابنها عيسى عليه الصلاة والسلام، "واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا"، أي اذكر يا محمد قصة مريم لقومك لتكون عبرة ودالة على عظمة خلق الله تعالى، وانتبذت: أي ابتعدت عن قومها، وكان لها خلوات مع ربها جل وعلا، كانت تخلو مع نفسها وتتعبد الله تعالى، وهذه من علامات الصلاح، الخلوة مع الله تعالى، وكانت في يوم من الأيام مختلية بربها جل وعلا، "فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا"، فكانت طاهرة، عفيفة، صادقة مع ربها، محصنة، حَيِيَّة، جلست لوحدها تتعبد الله تعالى، أغلقت الحجاب أي الباب، حتى لا يدخل عليها أحدا فيقطع عليها عبادتها، وإذ برجل يدخل ولا تعرف من هو، فقالت: "إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا"، أي اتق الله أيها الرجل، ولا تتعدى حدود الله معي، وابتعد من هنا، من أنت؟ ومن أين دخلت؟ فقال لها: لا تخاف: "إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا"، فدخل المكان على هيئة رجل صالح، ولو جاءها على هيئته لصعقت، والملك الذي جاءها أغلب الروايات على أنه جبريل عليه السلام على هيئة بشر، فقالت: "أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا"، قالت: أنا لم أتزوج، ولم أكن بغيا، فمن أين الولد، "قال ربك هو علي هين"، أي سهل على الله تعالى الذي خلق الخلق وهذا الكون الفسيح أن يخلق زيادة في الخلق، فخلق الجبال عنده سبحانه كخلق النمل، "ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا"، وهذا الغلام رحمة لك، ورحمة للناس، ومما يروى أن الملك نفخ في كمها، فحملت بهذا الغلام، وذهبت لمكان بعيد بعد حملها، من حيائها، ومن شدة خوفها، من سيصدقها وهي ليست متزوجة، "فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة"، "قالت يا ليتي مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا"، فجاءها ألم المخاض، وذهبت بالقرب من جذع النخلة، تمنت الموت وأنها لم تكن، ماذا ستقول للناس، ومن سيصدقها وابنها

أنه من غير زوج، ولم تكن بغيا، فهذا أمر عظيم عند البشر، وأمر عظيم عند النساء، فأعظم المصائب للنساء أن تتهم المرأة في شرفها وفي عرضها، وهي فضيحة ما بعدها فضيحة، فجاءها الملك مرة أخرى، "فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا"، هذا الغلام سيكون له شأن عظيم، يقال فلان من سراة القوم، أي من عظمائهم، وقال تعالى: "وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا"، الله عز وجل يعلمنا، حتى لو كنت في مثل هذه الحالة من الضعف فلا بد من الأخذ بالأسباب، فهل تستطيع مرأة في مخاضها أن تهز جذع نخلة عظيمة، لا وإنما هو الأخذ بالأسباب، فسقطت التمرات وأكلت منها، لماذا لم يقل جذع التفاح، أو جذع البرتقال، أو العنب، لأن التمر فيه مواد كيميائية تساعد على الولادة، ثم بعد الولاة فيه مواد كيميائية أخرى تساعد على انبساط وانقباض الرحم لكي يعود كما كان قبل الولادة، وهو مفيد للرضع، وهو مضاد للنزيف، ثم قال: "فكلي واشربي وقري عينا"، ولا تيأس من روح الله تعالى، فالغلام سوف يظهر الحقيقة بأمر الله تعالى، "فأتت به قومها تحمله"، قالوا: "يا مريم لقد جئت شيئا فريا"، أي مريم نعرف عفافك، وطهارتك، ونقاءك، لكن من غير زوج، فهذا أمر عظيم، "يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا"، لم يطعنوا بها للآن، لأنهم يعرفونها كما يعرفون أنفسهم، وهارون على قولين هارون النبي، والآخر أنه رجل صالح عندهم، وكانوا يوقون أخا هارون، كناية عن صلاح ذلك الرجل، "فأشارت إليه، قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا"، فأنطقه الله تعالى وهو في المهد طفل صغير فانبهر القوم من ذلك، لتظهر براءة مريم عليها السلام، "قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا"، جعلنا، ولم يقل سيجعلني، دليل على أن الأفعال المستقبلية حاصلة لا محالة، "وأوصاني بالصلاة والزكاة"، والصلاة صلة بين العبد وربه، والصلاة كانت موجودة قبل النبي صلى الله عليه وسلم، وقيل المقصود بالصلاة الدعاء، "وبرا بوالدتي، ولم يجعلني جبار شقيا".

ثم بعد ذلك جاءت القصة الثالثة، وهي قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، "واذكر في الكتاب إبراهيم، إنه كان صديقا نبيا"، ثم قال: "يا أبت لم تعبد ما لا تسمع ولا تبصر ولا يغني عنك شيئا"، فإبراهيم يتودد من أبيه بكلمة يا أبت، لم يقل له يا أيها العاصي، ولا أيها الكافر، وإنما تودد له، ثم قال لماذا تعد الأصنام، هذه الأصنام لا تنفعك، بل تضرك، وتعلقك بها يبعدك عن رحمة الله تعالى، "يا أبت قد جاءني من العلم ما لم يأتك"، وهذا كلام في منتهى الأدب من نبي الله إبراهيم مع أبيه، فلم يقل له يا جاهل، ولم يقل أنني عالم، ولكن قال يا أبت جاءني علم لم يأتك، فاتبعني لأوصلك لبر الأمان باتباع منهج الله تعالى، فاتبعني أهدك صراطا مستقيما، وعرفت ما لك وما عليك، هرفت أين شقاءك، وعرفت أين سعادتك، فسوف تعلم أن سبب الشقاء هو الابتعاد عن الله تعالى، "يا أبت أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن"، أخاف عليك من عذاب الرحمن، ولم يقل من عذاب الله، ولكنه قرن العذاب بالرحمن، ليعلم أنه رحمن رحيم، وهو لا يقصد العذاب بحد ذاته، وإنما المقصود الالتزام بأوامر الله تعالى، أي هذا العذاب فيه رحمة، فإما أن نتخلص من أصحاب الكفر والمعاصي والشرك، وإما رحمة بهم أن لا

يزدادوا في طغيانهم فيزداد عذابهم، فالمريض يذهب للمستشفى فترجى عملية جراحية له، وظاهر الجرح العذاب، لكن ما أريد به إلا تخيف آلمه، فلجأنا للجراحة، قال والده: "قال أراغبٌ أنت عن ءالهتي يا إبراهيم، لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا"، لأرجمنك: أي لأقتلنك رجما، وإما أن تعني أضربك حتى الموت، واهجرني: أي ابتعد عني واتركني للأبد، قال إبراهيم: "سلام عليك"، "سأستغفر لك ربي"، أي سأستغفر لك الله تعالى عن شركك وكفرك ومعاصيك، لعله يغفر لك، "إنه كان بي حفيا"، أي كان بي رحيما ولطيفا.

ثم بعد ذلك ذكر الله تعالى عددا من الأنبياء بدءا من موسى عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: "واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا"، وذكر الله أن موسى كليم الله، ثم ذكر إسماعيل عليه السلام: "واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ره مرضيا"، ثم ذكر إدريس فقال تعالى: "واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا"، "ورفعناه مكانا عليا"، ثم ذكر نوحا: "وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسماعيل وممن هدينا واجتبينا"، ثم قال تعالى: "فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا"، أي هؤلاء الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام جميعا، جاءت من بعدهم أقوام وعصوا الله تعالى، وأشركوا وكفروا، وعبدوا الأصنام، فسوف يلقون العذاب، ومنهم هذه الأمة التي ابتعدت عن كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فتركوا الصلاة، وتركوا الصيام، وتركوا الزكاة، وكثير منهم لا يحمل من الإسلام إلا اسمه، ومن القرآن إلا رسمه، وحتى أن بعضهم قلبه مليءٌ قلبه بالشبه ضد الإسلام، فمن ترك الصلاة اتبع الشهوات، ومن اتبع الشهوات ترك الصلاة، فصلاة وشهوات وصلاة لا يتفقان أبدا، لأن الصلاة الحقة التي يريدها الله تنهى عن الفحشاء والمنكر، فإقامة الصلاة ليس فقط بالأداء وإنما المقصود الاستقامة، الاستقامة على ما عاهدت الله تعالى عليه، اتبعوا الشهوات، والشهوات دنيئة تحط من قيمة الإنسان، ضيعوا الصلاة بتأخيرها عن وقتها، أو بتركها، أو بعدم القيام بما يعاهدون الله تعالى عليه خلال الصلاة، فهؤلاء سوف يلقون العذاب يوم القيامة، "إلا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا"، فالذي يعود إلى الله ويتوب، فسيغفر الله تعالى له، ويتجاوز عن سيئاته ما دام عاد ورجع إلى ربه جل وعلا، فالإسلام ثلاثة أقسام: العقائد، والعبادات، والمعاملات، فالعبادات كثير من الناس يقوم بها، لكن المعاملات للأسف لقد ضيعناها، نحن نعاني من أزمة الأخلاق، "جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتيا"، جنات الخلد، جنات إقامة دائمة إلى أبد الآبدين، وهذا وعد الله تعالى، فلا بد آت لا محالة، ولا راد لرحمة الله تعالى عن عباده، "تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا"، هذه الجنة لا نورثها إلا من اتقى الله وكان يتمتع بصفات المتقين، ثم يذكر الله تعالى نعمه على بني آدم، ولكنهم يلاقون ذلك بالعصيان، "أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يكن شيئا"، لقد خلق الله تعالى الإنسان ولم يكن شيئا مذكورا، خلقه من العدم، وجعل السبب في ذلك الزوج والزوجة، فجعل أصل خلقته نطفة، ثم بعد ذلك تكونت هذه النطفة حتى

صارت دما ولحما، وتكونت لديه الأعصاب والعضلات والأجهزة، ومنَّ الله تعالى على الإنسان بالنعم والخيرات، ثم بعد ذلك يكفر ويشرك، "فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا"، يا محمد لنحشرنهم هؤلاء المشركين، المكذبين، الكافرين، مع الشياطين، مع الشياطين التي سولت لهم بالشرك والطغيان، وجثيا أي واقفين على الركبتين، وهذه وقفة فيها ذل وهوان، "ثم لننزعنهم من كل شيعة"، أي من كل جماعة ومن كل مجموعة من البشر، فهؤلاء أشدهم طغيانا، أشدهم كفرا، أشدهم كبرا، أشدهم انحرافا، لا يعجزون الله تعالى، "وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا"، وجمهور المفسرين على أن أي بشر مؤمن أو كافر إلا وسيمر على النار، إن كان من أصحابها ألقي بها، وإن كان من أهل الجنة رآها فيزداد فرحا بجنته فوق فرحه لأن الله تعالى أنجاه من هذه النار، فالمؤمن يرى مقعده من النار، ولكن الله أبدله بمقعدٍ آخر بالجنة، فلو عصا الله ذهب لمقعده المخصص في النار، وإن عمل صالحا وكأن الله تعالى يقول له قد أبدلناك مكانا في الجنة بدلا من مكانك في النار، وصاحب النار يرى مقعده من الجنة الذي كان له لو أنه أطاع الله، يرى مقعده الذي كان له بالجنة ثم يقذف في النار، وسبب الرؤية من أجل أن يزداد عذابا فوق عذابه، ثم قال الله: "ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا"، ثم هنا تفيد الترتيب على التراخي، فالذين آمنوا يأخذوا مكانهم، والذي طغوا وكفروا لهم مكانهم أيضا في نار جهنم، "وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أيُّ الفريقين خير مقاما وأحسن نديا"، أي هؤلاء الكفار سيكون جثيا في نار جهنم، ومعركة الكفر والإيمان، ومعركة الحق والباطل، ومعركة الخير والشر، معركة دائمة إلى قيام الساعة، فكثير من الكفار والمشركين منَّ الله عليهم في الدنيا بالأموال والمناصب، لكن في الآخرة ما لهم من خلاق، فهؤلاء الكفار والمشركين بسذاجتهم وسخافتهم وسخافة عقولهم أن الله تعالى منَّ عليهم بالخيرات لأنه يحبهم، وهم لا يعرفون أن الله يستدرجهم، فإن تابوا تاب الله عليهم، وإن لم يتوبوا لم يتب عليهم، "وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورءيا"، أفلم ينظر هؤلاء الكفار والمشركين أن الله تعالى أهلك أقواما قبلهم لأنهم عصوه سبحانه وتعالى؟ ألم يروا قوم نوح؟ ألم يروا قوم لوط؟ ألم يروا قوم صالح؟ ألم يروا قوم شعيب؟ ألم يروا قوم موسى؟ أفلا يتدبرون هذه القصص؟ فلماذا لا يتَّعضون بها، نحن اليوم نعيش في عصر قسوة القلوب، عصر قلب الإنسان أشد قسوة من الصخر، ولو أن قلبه كان ليِّنا لنظر وتدبر بمن قبله وتاب إلى الله، "ويزيد الله الذين اهتدوا هدى، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا"، فالذي يختار الهدى يهديه الله، والذي لا يختار الهداية فهو الخاسر، وسيلقى جزاءه عند الله تعالى بسبب إنكاره لعظمة الله تعالى، وبسبب عدم العبء بآياته، "سنكتب ما يقول"، "وقالوا اتخذ الرحمن ولدا"، فالعرب قالوا: الملائكة بنات الله، واليهود قالوا: عزير ابن الله، والنصارى قالوا المسيح ابن الله، "لقد جئتم شيئا إدا"، أي جاؤوا شيئا عظيما، وفرية عظيمة، "وكلهم آتيه يوم القيامة فردا"، كلُّ مخلوق سيأتي الله تعالى لوحده، لا أقارب ولا جماعة، ولا زوج، ولا ولد، "فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا"، وهذه السورة في النهاية تتحدث عن شيئين: إما أن تبشر المؤمنين وتنذر الكافرين، ولا بد أن

يأتي يوم لا يبقى واحدٌ منا فوق الأرض، فبعد مئة عام كلنا سنكون تحت أطباق الثرى، في قبور عند مليك مقتدر، فإما أن تكون روضة من رياض الجنة، وإما أن تكون حفرة من حفر النيران، وما أعده الله تعالى أعظم يوم القيامة.

الفرع الثاني: سورة الواقعة [27]

وسورة الواقعة من السور المكية، وعدد آيات هذه السورة الكريمة ستةٌ وتسعون آية، وجاء ترتيبها ستةٌ وخمسون في كتاب الله تعالى، وهي في الجزء السابع والعشرين، وجاءت هذه السورة الكريمة معالجةً لقضية مهمة جدا، وهي النشأة الأولى والآخرة، وجاء ذكر الآخرة فيها باسم (الواقعة)، والواقعة اسم من أسماء يوم القيامة، وتذكر السورة الكريمة أحداث ذلك اليوم، وأنه يوم عصيب، وذكرت السورة ثلاثة أصناف من الناس ومصيرهم بعد ذلك اليوم، وهم السابقون الأولون، وأصحاب الميمنة، وأصحاب المشئمة، حيث وصفت السورة مصيرهم من النعيم والعذاب لكل صنف منهم، فذكرت قضية البعث والنشور، وهي من أمور العقيدة الواجب الإيمان بها، كما وعرضت السورة خلق الإنسان، ونشأته، وموته، وذكرت السورة صورا من الحرث والزرع الذي هو إنشاء للحياة بقدرته عز وجل، وعرضت السورة صورا للماء الذي هو أحد أسباب الحياة، ولو شاء الله تعالى لم ينزله على البشر، وذكرت السورة صورا للنار ، ثم جاءت ذاكرةً للحظة مهمة من حياة الإنسان، وهي لحظة الاحتضار، تلك اللحظة التي لا بد من أن نلاقها جميعا، كما لقيه الذين من قبلنا، وقد وردت أحاديث في فضل سورة الواقعة، وفي الحيث الشريف عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ قال : قال النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ : هُما جَميعًا مِن أمَّتي"، الراوي : عبدالله بن عباس | المحدث : ابن جرير الطبري [28]، وعندَ الإمام أحمدَ في الحديث الذي يرويه أبو هُرَيرَةَ رضِيَ اللهُ عنه: "لَمَّا نزلَتْ {ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ} [سورة الواقعة الآية: 13- 14]. شَقَّ ذلك على المسلمينَ، فنزَلَتْ {ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ} [سورة الواقعة الآية: 39، 40]. فقال: أنتم ثُلُثُ أهلِ الجنَّةِ، بلْ أنتم نِصْفُ أهلِ الجنَّةِ، وتُقاسِمُونَهم النِّصْفَ الباقِيَ"، وهذا مِن فضْلِ اللهِ على أُمَّةِ الإسلامِ، فلمَّا رَجا النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ رَحمةَ ربِّه أنْ تكونَ أُمَّتُه نِصْفَ أهلِ الجنةِ، كما رواهُ مُسلمٌ، أعطاهُ ما ارْتَجاه، وزادَهُ، وهو نحوُ قولِه تعالى: {وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى} [سورة الضحى الآية: 5]. وقد ورد في سبب نزول الآية [82] قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي يرويه عبد الله بن عباس رضي الله عنه: "مُطِرَ النَّاسُ علَى عَهْدِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، فقالَ: النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: أصْبَحَ مِنَ النَّاسِ شاكِرٌ ومِنْهُمْ كافِرٌ، قالوا: هذِه رَحْمَةُ اللهِ، وقالَ بَعْضُهُمْ: لقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذا وكَذا قالَ: فَنَزَلَتْ هذِه الآيَةُ: {فَلا أُقْسِمُ بمَواقِعِ النُّجُومِ}، حتَّى بَلَغَ: {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ} [الواقعة: 75 – 82]" [29]. والنوء: أحد منازل القمر، فمن اعتقد أن المطر أو الحوادث في هذه الدنيا من تحركات للإنسان والحيوان والكواكب والنجوم، أنها بسبب النجوم فهو مشرك بربوبية الله تعالى.

وجاء في تفسير النابلسي في تفسير هذه السورة الكريمة بداية تعريف بالواقعة، فقال: الواقعة هي يوم القيامة، وهذه السورة الكريمة تتحدث عن اليوم الآخر، لأن الإيمان باليوم الآخر هو لبُّ الإيمان، فالعبد يؤمن بأركان الإيمان اعتقادا جازما 100%، فنسبة 99.9% لا يعد مؤمنا كاملا، فالمؤمن يؤمن بكل شيء جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، والإيمان هو الاعتقاد الجازم، ومكانه القلب، وينعكس أثره على الجوارح كاملة، وكذلك ينعكس ذلك على أخلاق المؤمن، لذلك فإن سيدنا أبو بكر رضي الله عنه كما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه لو وُضِع إيمان الأمة في كفة وإيمان أبو بكر في كفة لرجح إيمان أبو بكر، لماذا؟ لأن إيمانه كامل، لذلك كما ورد في الأثر فإن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يتنافسون في الطاعات بشتى أنواعها، لكن أبو بكر زاد عنهم بشيء وقر في القلب كما قال عليه الصلاة والسلام، وهذا الشيء الذي وقر في القلب هو الإيمان، هو الاعتقاد الجازم 100%، فالإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر متلازمان دائما، والدليل لو أن أحدا آمن بوجود الله تعالى، لكنه لم يؤمن باليوم الآخر وأن الله سوف يبعثه لا فائدة من إيمانه، وإيمانه يكون ناقصا، وإذا، هو ظرف لما يستقبل من الزمان، وتقدير الكلام: إذا وقعت الواقعة وقعت، ليس لوقعتها كاذبة، أي أنها واقعة لا محالة، قال وقعت ولم يقل ستقع الواقعة، كناية عن قربها، وأن العبد يجب عليه الإيمان المطلق بما يقوله ربه جل وعلا، فالأفعال المستقبلية يجب أن تقع في قلوبنا كالأفعال الماضية إن أردنا أن يكون إيماننا كاملا، خافضة رافعة، وهذا من عظيم قدرة الله تعالى، فالذي يكون يوم القيامة في منصب عالٍ، أو يكون ملكا، أو أميرا، أو وزيرا، أو مديرا، يتساوى في أرض المحشر وفي الجنة مع أقل موظف وأقل عبد كان في الدنيا، وفي الجنة يمكن أن يكون العبد الفقير مؤمنا إيمانا جازما في الدنيا، فاستحق جنان الخلد، فكانت مكانته عالية جدا عند الله تعالى، وهذا الرئيس، أو هذا المدير أو هذا الملك لم يكن من أهل الإيمان، فتراه إما في النار والعياذ بالله، وإما في مكانة أدنى من ذلك العبد الذي بلغ إيمانه 100% بربه جل وعلا، فالواقعة خفضت أناسا كانوا في مراتب دنيوية عليا، ورفعت أناسا كانوا في الحضيض، إنما العاقبة تكون للمتقين، ويصف الله عز وجل هذا اليوم بأن يوم عظيم، فيقول إذا رجت الأرض رجا، أي فتت، وكانت هباء وكأنها لم تكن، تخيل جبال الهملايا والتي يبلغ ارتفاعها تسعة آلاف متر فوق الأرض، وتحت الأرض ضعفها مرتين، وكل هذا يكون هباء ويتناثر، وبست الجبال بسا، ويضرب الله تعالى لنا الأمثلة لذلك اليوم بالزلازل والبراكين وتصدعات الأرض وتشققاتها، والحمم البركانية التي تزيد حرارتها عن الألفي درجة مئوية، وأن هذه جزء يسير من أهوال يوم القيامة، عندها يكون الناس على ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: وهم أصحاب اليمين: وهم المطيعون الذين لم يعصوا الله تعالى، وعملوا المباحات، ولكنهم أيضا تركوا شيئا منها حتى لا يقعوا في الحرام تورعا.

والصنف الثاني: وهم أصحاب الشمال: وهم الذي خرجوا عن نهج الله تعالى ونهج رسوله صلى الله عليه وسلم، وهم الكافرون والذين أشركوا مع الله أحدا من خلقه.

والصنف الثالث: هم السابقون السابقون: وهم الذيم باعوا أنفسهم لله تعالى، ضحوا بأموالهم وأولادهم لإعلاء كلمة الله تعالى، وصلوا مرتبة من الإيمان لم يصلها غيرهم، فكان لم أجر على قدر طاعته، قال تعال: "إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم"، وقال: "إن المتقين في جنات ونهر"، مثلا لو أنك دُعيت لطعام عند صديق لك، وكان هذا الصديق قد تشاجر مع زوجته، كيف سيكون؟ سيكون في ضيق، وسيكون عليه ملامح الغضب، لا يكون فرحانا كما لو أنه لم يحث له شيء مع زوجته، فإذا كان في ضيق في نفسه لم يحسن استقبال ضيفه، ولم يستقبله استقبالا يليق به، وبالرغم أن زوجته رفض إعداد الطعام، إلا أنه أحضر طعاما من المطعم، وكان طعاما طيّبا، ولكن الاستقبال لم يكن على ما يرام، فالضيف لم يرتح لذلك، ولله المثل الأعلى، يعطيك الجنة ، ويعطيك كل أنواع الملذات، وبالإضافة إلى ذلك الترحيب، والتكريم، والتوقير، والرضوان، وثلة من الأولين، على خلاف، فبعضهم قال: أن الثلة من كان قبل سيدنا محمد، والقليل من آمن بالنبي عليه الصلاة والسلام، لكن الجمهور على أن الثلة هم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، والقليل هم الذين آمنوا وأتوا بآخر الزرمان، "على سرر موضونة، متكئين عليها متقابلين"، فالمتقدمون والمتأخرون من المؤمنين يجلسون على سرر فيها أنفس المعادن والجواهر الثمينة، من ذهب، وألماس، ولؤلؤ، وإستبرق، وغيرها، ومع ذلك يتقابلون، فالإنسان يسعد بقرنائه وأصحابه، وأهل الجنة طيبون طاهرون، يطوف عليهم ولدان مخلدون، يقومون على خدمتهم، فلا النعيم ينتهي، وهم لا يُبعدون عنه، ولهم أشهى وأطايب الطعام، من الفاكهة، واللحوم، والطيور، ولهم فيها ما اشتهت أنفسهم، وما لذت أعينهم، وما لم تر هذه الأعين، وما لم يخطر على قلب بشر من أنواع النعيم، وهذا "جزاء بما كانوا يعملون"، من أنواع الطاعات والعبادات، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قالَ اللَّهُ تَبارَكَ وتَعالَى: أعْدَدْتُ لِعِبادِي الصَّالِحِينَ، ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ علَى قَلْبِ بَشَرٍ. قالَ أبو هُرَيْرَةَ: اقْرَؤُوا إنْ شِئْتُمْ: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ} [السجدة: 17]". قال أبو مُعاويةَ، عن الأعمَشِ، عن أبي صالِحٍ: قرَأ أبو هُريرةَ: (قُرَّاتِ أعْيُنٍ) [30]. والصنف الثاني أصحاب اليمين، في سدر مخضود وطلح منضود، وهؤلاء أقل درجة من الأُوَل، فهؤلاء فعلوا الطاعات والمباحات، وأطاعوا الله، فلهم نعيم، سدر منزوع الشوك، وماء يجري، وحور عين، فترى أحدنا إذا أراد أن يغير من روتينه اليومي، خرج رحلة، وعند عودته من رحلته أول ما يحدثك فيقول: ماء وخضراء، فالماء والخضراء من أنواع المتع، فكيف إذا كانت في الجنة، أما الصنف الثالث أصحاب الشمال، فمصيرهم إلى النار، في سموم وحميم، ريح شديدة الحرارة، وشرابهم ماء يغلي في البطون، يقطع الأمعاء، وظلهم من يحموم، أي من دخان أسود وحر شديد، لا بارد ولا كريم، هؤلاء أسقطوا حسابات الآخرة من حساباتهم، وساروا وراء شهواتهم وأهوائهم، المصيبة العظمى هي الكفر، أو الشرك، صحيحٌ أن العاصي يحاسب على عصيانه، لكنه في النهاية يدخل الجنة برحمة الله على إيمانه به، لكن الكافرين والمشركين خالدين في نار جهنم والعياذ بالله، هذا نزلهم يوم الدين، فالعصاة دخلوا ما يستحقون بسبب عصيانهم، والمؤمنون دخلوا ما يستحقون

بسبب ما قدموا لله تعالى، فما من إنسان إلا ويتمنى السعادة والسلامة في الدنيا والآخرة، والسعادة والسلامة لا تكون إلا باتباع منهج الله تعالى، واتباع سنة النبي صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: "إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (13) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (14) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (15) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (16) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (17) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (18) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (19)" [سورة الانفطار الآية: 13-19].

الفرع الثالث: من آيات خلق الله تعالى في الإنسان

يُدخل النابلسي في قوله تعالى: "أفرأيتم ما تمنون، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون" الطب ويبين الإعجاز في خلق الإنسان الذي يأتي من النطفة، فيقول أن لقاء الزوج بزوجته يخرج منه خمس مئة مليون حوين تقريبا، وهذا الحوين لا يرى بالعين المجردة، وهو خلية فيها نوية، وفيها هيولى، ويحيط بها غشاء، ولها رأس مدبب، ولها عنق وذيل تمشي به، وعلى النوية موروثات مجموعها خمسة آلاف مليون معلومة مبرمجة، فهذه الحوينات، هذه الجيش الكبير يسير ليصل واحد منها، وهو أقوتها، إلى البويضة، ويمشي بسرعة عشرة سنتميترات في الساعة، لأنه سينتقل إلى رحم المرأة، وعندما يلتقي الحوين بالبويضة يخترقها ثم يغلق الباب خلفه، فلا يخترقها غيره، عندها تصبح بويضة ملقحة، أي مشروعا لإنسان في المستقبل إن كتب الله تعالى له ذلك، ثم تنقسم البويضة وتصبح خلايا، حتى تصبح علقة، ثم مضغة، ثم عظم، ثم يكسوا العظام لحما، قال تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (5)" [سورة الحج الآية: 5]. وقال تعالى: "ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (14) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (15) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (16)" [سورة المؤمنون الآية: 14- 16]. والقضية ليست نموا عشوائيا، بل كل شيء مرتب ترتيبا مقدر من عنه جل وعلا، فمثلا هناك 140 مليار خلية في الدماغ، 14 مليار خلية قشرية في الدماغ، والعصب البصري في 900 ألف عصب، وفي العين 130 مليون عصية ومخروط، وفي الرأس 300 ألف شعرة، ولكل شعرة وريد وشريان وعصب وعضلة وغدة دهنية وغدة صبغية، والمعدة فيها 35 مليون عصارة هاضمة، والغدة النخامية حجمها 0.5 غرام، وتفرز 10 هرمونات، وفي الكلية من الكليتين طريق طوله 100كم يقطعه الدم في اليوم خمس مرات، وفي كل كلية مليون ميكرون، ناهيك عن الرئتين، والأمعاء الدقيقة والأمعاء الغليظة، وباقي أجزاء الجسم.

من يصدق أنَّ دماغ الإنسان فيه (140) مئة وأربعون مليار خلية سمراء استنادية، لم تُعرف وظيفتُها بعد، إذا نظرنا إلى خلايا قشرة الدماغ وجدناها (14) مليار خلية، مكان الذاكرة فيها لا يتجاوز حجم حبة

العدس، وتتسع هذه المساحة لـ (70) لسبعين مليار صورة، الدماغُ نفسُهُ يعجزُ عن فهم وتفسير ذاته، والدماغُ أعقدُ ما في الكون، الشبكية فيها مثلا بالمليميتر (100) مئة مليون مستقبل ضوئي، وفي الكاميرات الحديثة الاحترافية بالمليميتر (10) آلاف مستقبل ضوئي، قال تعالى: "أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10)" [سورة البلد الآية: 8- 10]. والعظيم لا يقسم إلا بعظيم، وفي القرنية طبقة شفَّافة من أجل أن ترى رؤيةً شفَّافةً واضحةً دقيقةً، إخواني الكرام بالعين يوجد ماء، وهذا الماء حسَّاس جدا جداً، والماء نعرف أنَّه يتجمد عن درجة الحرارة صفر، هذا شيء معروف ومن البديهي، لكنْ هناك في (فِلَّنْدَا) درجة الحرارة تصل إلى (69) تحت الصفر، معن ذلك أن كلَّ إنسانٍ هناك يجب أن يفقد بصرَهُ، بسبب تجمد ماء العين وبالتالي تفجر العين بسبب التجمد، لكنَّ هذا بديهيٌّ بقوانين البشر، أما بقوانين الله تعالى فالعملية مختلفة تماماً، فما الذي يحصلُ حتى أن الناس هناك لا يتجمد ماء العينين ويفقدون بصرَهُمْ؟؟ والإجابة العظيمة هي: أنَّ الله تعالى أودع في ماء العين مادةً مُضادةً للتجمدِ، يدُ منْ؟ حكمةُ منْ؟ قدرةُ منْ؟ رحمة منْ؟ علمُ منْ؟ إنَّه الله الذي لا إله إلا هو، هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه". أنت أيها الإنسانُ تحسبُ نفسَكَ جِرْماً صغيراً وفيك انطوى العالمُ الأكبرُ، وقد صدق الإمام علي بن أبي طال حيث قال:

وتحسب أنك جرمٌ صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

داؤك منك ومـا تبصر دواؤك فيك ومـا تشعر

تحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

هل تظنُّ نفسك تأتي بسهولة أيها الإنسان، الإنسان في أصل خلقته يحتاجُ إلى تكبير (100000) مئةَ ألفِ مرة بالمايكرسكوب، حتى يُرى هذا الإنسان الذي يتكبر والذي يبغي ويبطشُ، قال تعالى: "أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (77) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (80) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (81) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (82) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (83)" [سورة يس الآية: 77- 83]. يخاصِمُ الله تعالى يجعل هذا الإنسان الضعيف من نفسه نداً لله، الذي كان نطفةً لا يرى بالعين المجردة أصبح يخاصمُ الله، وهذا ليس كلاما نظريا، بل أصبح واقعاً مصوراً ومُكبَّراً، وهذا لإقامة الحجة على العباد، وهذا الإنسان في خلقه عندما يلتقي الحيوان المنوي مع البويضة في رحم الأُمِّ، يهجُمُ الحيوان المنوي على البويضة ليس واحد فقط وإنما يهجم عليها ما يزيد عن (100) مئة مليون حيوان منوي، حينها يبقى (700) أحياء منها، والـ(700) يبقى منها (واحد أو اثنان) يستطيع الوصول إلى البويضة، وواحد هو الذي يُلَقِّحُ البويضة، فتصبح بويضة مخصَّبة ملقَّحة، يعني مشروع إنسان، ومع هذا لا تراه إلا بالتكبير.

ثم يقول تعالى انظر يا ابن آدم للآيات من حولك، "أفرأيتم ما تحرثون، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون"، أَوَتظنُ نفس أيها الإنسان أنت من أنبت الزرع، كلا، إنها قدرت الله تعالى، أنت رميت الحب في الأرض، والأرض أرض الله، إن لم يشأ لها النمو لا تنمو، والمطر من عند الله، فإن شاء سبحانه لم ينزل، وإذا لم تعتبر من ذلك بأنك أنت سبب فقط لهذا النبات، انظر للغابات، انظر للجبال، كيف نبت نباتها من غير مزارع، كيف نشأت أشجارها من غير زارع يزرعها، إنها قدرت الله تعالى، فمبدأ التكثر إبداع من إبداعات الله تعالى، تخيل أن 5 غرامات من بذور البندورة تُزرع في نصف دونم، وتنتج عشرة أطنان من البندورة، ويأخذ الفلاح حبة من البندورة فيأخذ بذورها للعام الذي يليه، فيزرها ويأخذ يحصد المحاصيل، حكمة من؟ قدرة من؟ هذا خلق الله، فأروني ماذا خلق الذين من دونه، أنت عندما تشتري كيلو من التفاح مثلا، أنت لا تدفع ثمنها، أنت تدفع فقط أجرة العناية بها، فهذه نعمة من نعم الله تعالى، والنعمة لا تقدر بثمن، هذا النبات من أوحى له بأن ينبت بعد أيبوع، أو بعد عشرين يوما، من أوحى له أن يخرج فوق سطح الأرض بعكس الجاذبية، من أوحى للبرتقال أن يكون في الشتاء، من أوحى للوز والفراولة أن تكون في الربيع، من أوحى للبطيخ، ولتين، والعنب، والصبار، أن يكون في الصيف، من النبات من يعيش في البرد، ومنها من يعيش في الحر، ومنها من يعيش في بيت بلاستيكي، منها لا يعيش إلا في الجبال، ومنها لا يعيش إلا في السهل، ومنها لا يعيش إلا في الوادي، منها لا يعيش إلا بعلا، ومنها لا يعيش إلا بالري، إنها قدرة الله تعالى ، هذا خلق الله، فأروني ماذا خلق الذين من دونه. "أفرأيتم الماء الذي تشربون"، هذا الماء منه المالح، ومنه العذب، والمالح لا يصلح للزراعة، والعذب يصلح للزراعة والشرب، منها لا يكون إلا في الأقطاب متجمد، ومع ذلك تحته ماء، يسبح فيه البطريق مع شدة برودته، ومنها لا يصلح لعيش السمك فيه، مثل البحر الميت، ومنها لا يصلح للري كالماء المالح، هذا الماء عصب الحياة من خلق الله تعالى، ولو شاء الله ما أنزله، هذه آية من آيات الله تعالى، فانظر من حولك، هل يستطيع أحدٌ أن يعيش من دون الماء؟ بالطبع لا، يستحيل ذلك، من جعل دورة الماء في الطبيعة، يتبخر الماء، ثم يتكاثف في السماء، ثم بعد ذلك يأذن الله تعالى بأن ينزل ويبارك فيه، منه من يكون رحمة، ومنه من يكون عذابا، من جعل ذرات الأوكسجين تتحد مع الهيدروجين حتى تكون الماء، إنه الله، هناك عمليات استمطار صناعي، تطير الطائرة فوق السحاب، وينزلون على الغيوم موادا كيميائية معينة حتى ينزل المطر، فلا ينزل، لماذا؟ لأن الله تعالى شاء أن تكون محاولة فاشلة للاستمطار، ويدفع فيها ملايين الدنانير، فلا ينزل، "أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون"، ولا بد من الإشارة إلى أن مياه البحر تُحلى، لك إن أردنا تحلية ما البحر للاستعمال الشخصي، لكان ليتر البنزين السوبر أرخص من ليتر الماء، لأنه يكلف أموالا طائلة وباهظة، عملية تحلية الماء عملية مكلفة جدا، والله عز وجل ينزلها على البشر محلاةً جاهزةً للشرب، ومع ذلك هذا الإنسان يتكبر في الأرض، هذا خلق الله، فأروني ماذا خلق الذين من دونه، " أفرأيتم النار التي تورون"، هذه النار التي جعلها الله تعالى رحمة للإنسان، وبنفس الوقت جعلها عذابا له، رحمة فلا

يمكن لبيت أن يستغني عنها، للطبخ والتدفئة، حتى كبار المصانع لا تستطيع الاستغناء عن النار، انظر من حولك، إلى أي صناعة، بلاستيكية، أو معدنية، أو غذائية، أو غير ذلك، فإن النار تدخل في جزء من صناعتها، إما في طبخها وشوائها، وإما في صهرها وإذابتها وتشكيلها بعد إذابتها، كالحديد والذهب وغيره، والشجرة جعلها الله للاستفادة منها وهي خضراء، وللأكل من ثمارها، فإذا يبست استفاد منها الإنسان في الحطب، إما للتدفئة، وإما للطبخ، وإما في غير ذلك، قال تعالى: "الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون"، ثم قال تعالى في موضع آخر: "فاتقوا النار التي وقودها النار والحجارة أعدت للكافرين"، هذه النار كما أنها نعمة فهي نقمة أيضا في الدنيا لمن لم يحسن استخدامها واستغلالها، فكم نسمع من حريق للأشجار والغابات، وكم نسمع عن حرائق في البيوت، في يقسم الله بآية أخرى فقال: "فلا أقسم بمواقع النجوم"، فالعقبة مثلا تبعد عن إربد ما يقرب من 400 كم، وعمان تبعد عن إربد ما يقرب 100كم، ومكة المكرمة تبعد عن إربد ما يقرب من 1700 كم، فما بالك بمواقع النجوم، وكم يبعد النجم عن الآخر، الشمس تبعدُ عن الأرض (100) مئةَ مليون سنة ضوئية، وأقرب نجم ملتهب على الأرض عدا الشمس يبعد عنا (أربع سنواتٍ) ضوئية، والسنة الضوئية إذا أردنا حسابها نقول: سرعة الضوء (300) ألف، ثلاثُمائةِ ألفِ كيلو متر في الثانية، فيقطعُ الضوءُ في الثانية ثلاثُمائةِ ألفِ كيلو متر، فنقول: 300000 (كيلو متر) * 60 (ثانية) * 60 (دقيقة)= كم يقطع الضوء في الساعة، وإذا أردنا كم يقطع في اليوم نضرب المجموع: *24 (ساعة)، وإذا أردنا ان نعرف كم يقطع الضوء في السنة نضرب المجموع في 365 (يوم)، فكم يقطع في أربع سنوات؟ نضرب *4 (سنوات)، وهذه العملية الحسابية لو قمنا بها نعرف كم يبعد عنا أقرب نجم ملتهب ما عدا الشمس، والذي يبعد عنا (أربع سنواتٍ) ضوئية، فما بالك ببعد الشمس عنا التي تبعد عن الأرض (100) مئةَ مليون سنة ضوئية، ولتقريب المثال، لو افترضنا أن لهذا الكوكب أو هذا النجم طريق مُعَبَّد، وأنِّي أمتلك سيارة سرعتها 100 كيلو متر في الساعة، وانطلقت من الأرض باتجاه هذا الكوكب أصل إلى أقرب نجم ملتهب بعد (50) مليون عام، والإنسان يعيش (60) عام، هذا للنجم الذي يبعد عنا 4 سنوات ضوئية فما بالك بنجم القطب الذي يبعدُ عنا (4000) أربعةَ آلفِ سنةٍ ضوئية، قفزة كبيرة من: 4 – 4000، يعني (50) مليون عام * 4 (سنوات التي تم حسابها سابقا)= (200000) مئتا مليون عام يحتاج الوصول إلى هذا النجم، والمرأة المسَلسَلة مجرة تبعد عنا (مليونيْ سنة ضوئية)، ومتى نصل إلى نجم اكتشف حديثا يبعدُ عنا (20) عشرين مليار سنة ضوئية، هذه حقائقٌ مسَلَّمٌ بها، "هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه"، ولكنَّ الناس في غفلةٍ عن هذا، إذا كانت الـ(4) الأربعَ سنوات ضوئية نصل إليها بعد (50) مليون عام، فمتى نصل إلى هذا النجم، قال تعالى: "فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76)" (سورة الواقعة)، والعظيم لا يقسم إلا بالعظيم، لذلك قال تعالى: "إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (28) (سورة فاطر)، فالعلماءُ هم أشد الناس خشية لله سبحانه وتعالى، فكلما رقى الإنسان بعلمه زاد يقينه

على الله تعالى وزادت خشيته له سبحانه، فهو يعلم ما لا يعلمُهُ غيره من غير المتعلمين، فإذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، إذا أردتهما معا فعليك بالعلم، والشمس حرارتها (20) مليون درجة مئوية في المركز، وعلى الأطراف (6) مليون درجة مئوية، وأنت يا أيها الإنسان تقي نفسك من حر الشمسِ بيدك أو بِمِظَلَّةٍ، "هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه"، فالبعرة تدلُ على البعير، والأثر يدل على المسير، فسماءٌ ذاتُ أبراجٍ، وأرضٌ ذاتُ فجاجٍ، ألا تدلُّ على السميعِ البصير، وأنت يا أيها الإنسان تتكبر وتتجبر في هذه الدنيا، حتى وصل الأمر بفرعون أن قال أنا ربكم الأعلى، كن على ثقةٍ ويقينٍ أيها المؤمن بأن علمَ اللهِ يطولُكَ، وأن رؤيةُ الله تطولُكَ، وأن قدر الله يطولُكَ، عندها إذا علمت ذلك فإنك لا تعصيه، واعلم أن المجموعة الشمسية جزءٌ من مجرةٍ من مئات بل آلاف المجرات المكتشفة وغير المكتشفة، التي تدل على خلق الله تعالى، هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه.

ثم تبقى السورة الكريمة تسرد من آيات الله تعالى، وتحذر الإنسان من معصيته سبحانه وتعالى، "فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون"، فإذا جاء الموت وأنت لم تؤمن بالله بالرغم مما حولك من الآيات العظيمات، قال تعالى: "فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (88) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (89) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (90) فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (91) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (92) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (93) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (94)" [سورة الواقعة الآية: 88- 94]. فالمقرب من الله تعالى الذي صدق بآيات الله تعالى، هو من الذين وصفهم الله أنهم من المقربين، وأما إن كان من الذين كذبوا بآيات الله تعالى، ولم يؤمن به جل وعلا، فهو من المكذبين الضالين، فنزله من حميم، وله تصليه جحيم، وهذا مصير أهل الضلال والتكذيب، مصير المنافقين المشركين الذي تركوا منهج الله تعالى، ومنهج رسوله صلى الله عليه وسلم، واتبعوا الشياطين والشهوات، فإذا تحققت هذه الحقائق، وهذه الآيات، وتفكرت في خلق الله تعالى، وفي ملكوته جل وعلا، وإذا علمت أن هذا الكون وما فيه لا يسير إلا بأمر الله تعالى، وإذا أيقنت الثواب والعقاب، ومصير المؤمنين والمكذبين، فاعلم يا ابن آدم: " إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (95) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (96)" [سورة الواقعة الآية: 95، 96] فقل سبحان الله، فأجمل ما في التفكر في آيات الله، أن تقول سبحان الله، فهي كلمة تعبر أن ما تراه من آيات الله تعالى عظيمٌ والعقل لا يستوعبه، فقل سبحانه الله، وعظمه، وعظم آياته، واعلم أن أفضل شيء يكتسبه الإنسان هو الحكمة، وأن أفضل مكان لاكتسابها هو المسجد، وهو المكان المناسب لمعرفة الله تعالى.

الخاتمة

بعد ما قدمناه في هذه الدراسة يتضح لدينا معاني بعض المفردات، ونستطيع التفريق بينها، كالتفسير والتأويل، وتحدثنا في دراستنا هذه عن التفسير، وكيف كان هذا التفسير على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وكيف أنه لم يكن هناك توثيق للتفسير، حيث أنهم كانوا يعتمدون على الذاكرة، والتدوين بدأ بالقرن الثاني

الهجري، ولقد ذكر أبرز مناهج التفسير في العصر الحديث، أبرز المفسرين وأبرز كتبهم، كما ورد في كتب العلم، ككتاب التفسير والمفسرون للأستاذ الدكتور فضل حسن عباس، ولقد تناولنا في بحثنا هذا تفسير الشيخ النابلسي الموسوم بـ (تفسير النابلسي، تدبر آيات الله في النفس والكون والحياة)، ذلك التفسير الذي يعد من أبرز التفاسير في عصرنا هذا، ولقد وضحنا ذلك من خلال ما ذكرناه في تعريف بالتفسير وصاحبه، ومن أبرز ما يميزه وقد تمت الإشارة إلى ذلك، أن الشيخ النابلسي يفسر القرآن بالقرآن، ثم يجمع ما يدور حول الموضوع من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، فيفسر القرآن بعد القرآن بالسنة النبوية الشريفة، ولا يقتصر على أحدهما بل يذكر كل ما يخدم تفسيره، ثم بعد ذلك يأتي بالقصص والحكايات التي كذلك تخدم التفسير، ولا يغيب عنه العلم والإعجاز العلمي، كما أنه لا يغفل من سبقه من العلماء المفسرين.

النتائج

وبعد هذه الدراسة توصل الباحث لما يلي:

1. أن هناك فرق ما بين التفسير والتأويل، لكن هذا الفرق فرقا دقيقا، لكن لا غنى لطالب العلم من معرفته، وأن هناك علاقة قوية ما بين التفسير والتأويل، ومن أبرز ذلك أن التفسير يختص بالرواية، والتأويل يختص بالدراية.
2. أن تفسير النابلسي يعد من أبرز كتب التفسير الحديثة لما يقدمه الشيخ النابلسي فيه، يفسر القرآن بالقرآن، ثم يجمع ما يدور حول الموضوع من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، فيفسر القرآن بعد القرآن بالسنة النبوية الشريفة، ولا يقتصر على أحدهما بل يذكر كل ما يخدم تفسيره، ثم بعد ذلك يأتي بالقصص والحكايات التي كذلك تخدم التفسير.
3. أن الشيخ النابلسي يحترم الرأي والرأي، ويتقبل النقد البناء، كما وأنه لم يغفل من سبقه من العلماء المفسرين ولم يغيب عنه العلم والإعجاز العلمي، ومما يميزه أن كان يستشهد كثيرا بأقوال العلماء والمجلات العلمية العربية والعالمية.
4. أن الشيخ النابلسي بدأ بتفسيره بدمشق، ولكن بسبب الأوضاع السياسية التي حصلت، انتقل إلى عمان، وأتم تفسيره فيه على شكل حلقات مصورة ومسجلة، كما كانت سابقا في دمشق، ولا يغيب عن ذهننا أن هذا التفسير هو نتاج أربعين سنة من الدروس والحلقات في المساجد التي فرغت على الورق من قبل تلاميذه، وقد أقرهم عليها.
5. ويمتاز أسلوب الشيخ النابلسي بالأسلوب الوعظي، وأسلوبه محبب لدى الجميع، فتراه تارة يستخدم عبارات سهلة، بينما يضمن حديثه عبارات أخرى يفسرها بطريقته، والشيخ النابلسي مدرك جدا أنه

يتعامل مع شريحة كبيرة من الناس، منهم صاحب العلم، ومنهم المثقف، ومنهم طالب العلم، ومنهم من دون ذلك، ولكنه بحديثه استطاع أن يتحصل على ثقة ومحبة الجميع.

6. أن الشيخ النابلسي لا يوثق غير الآيات والأحاديث ويخرجها، أما القصص والحكايات والأقوال، في أغلب أحيانه لا يوثقها، فتراها يقول: ومما ورد على لسان فلان، ومما ذُكر، ومما سمعنا، وقال لي أحد الأصدقاء، وقال أحد العلماء، وقد ورد ...، ومن هذه العبارات، وهذا لا يعاب عليه، فقد أشار لذلك بالمقدمة أنني سأتجاوز ذلك.

الهوامش

(1) النابلسي، محمد راتب: **تفسير النابلسي تدبر آيات الله في النفس والكون والحياة**، مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع، عمان- الأردن، ج 1، ط 1، 2017، ص13، 14.

(2) أبو ميّالة، نضال يوسف: **التفسير العلمي للقرآن الكريم بين الدكتور محمد راتب النابلسي والدكتور زغلول النجار**، دراسة مقارنة، جامعة الخليل، 2019، ص 40.

(3) ابن منظور، محمد بن مكرم: **لسان العرب**، دار صادر، لبنان- بيروت، ط/3، 1414هـ، ج/15 مادة (ف س ر).

(4) أبو حيان، محمد بن يوسف: **البحر المحيط في التفسير**، تحقيق صدقي محمد، دار الفكر، لبنان- بيروت، 1420هـ، ج/1، ص 26.

(5) القطان، مناع: **مباحث في علوم القرآن**، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، السعودية –الرياض، الطبعة الثالثة، 2011، ص 235.

(6) ابن فارس، أحمد بن فارس: **مقاييس اللغة**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، لبنان –بيروت، 1399هـ، ج/1، ص 158.

(7) الذهبي، محمد حسين: **التفسير والمفسرون**، دار الحديث للطباعة والنشر والتوزيع، مصر- القاهرة، 1433هـ، ج/1، ص 21،20.

(8) القطان، **مباحث في علوم القرآن**، ص 337، 338.

(9) الخالدي، صلاح عبد الفتاح، **التفسير والتأويل في القرآن الكريم**، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، الأردن- عمان، 1416هـ، ص 169.

(10) القطان، **مباحث في علوم القرآن**، ص240- 242.

(11) القطان، **مباحث في علوم القرآن**، ص 242، 243.

(12) الذهبي، **التفسير والمفسرون**، ص 36.

(13) القطان، **مباحث في علوم القرآن**، ص 344- 348.

(14) الذهبي، **التفسير والمفسرون**، ص 99،100.

(15) القطان، **مباحث في علوم القرآن**، ص 348- 353

(16) القطان، **مباحث في علوم القرآن**، ص 358- 362.

(17) القطان، **مباحث في علوم القرآن**، ص 362- 365.

(18) عباس، فضل حسن، **التفسير والمفسرون أساسياته واتجاهاته ومناهجه في العصر الحديث**، دار النفائس للنشر والتوزيع، عمان- الأردن، ج/1، ط/1، 2015، ص13.

(19) عباس، **التفسير والمفسرون أساسياته واتجاهاته ومناهجه في العصر الحديث**، ص301.

(20) عباس، **التفسير والمفسرون أساسياته واتجاهاته ومناهجه في العصر الحديث**، ص 357.

(21) عباس، **التفسير والمفسرون أساسياته واتجاهاته ومناهجه في العصر الحديث**، ص457.

(22) أبو ميّالة، **التفسير العلمي للقرآن الكريم بين الدكتور محمد راتب النابلسي والدكتور زغلول النجار**، ص51-54

(23) النابلسي، محمد راتب: **موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية آيات في الآفاق**، دار المكتبي، سوريا- دمشق، 2005، ص 109- 111).

(24) رواه الترمذي في سننه برقم 3369، وقال عنه: هذا حديث لا نعرفه مرفوعا من هذا الوجه، وذكره الإمام أحمد في مسنده، كذلك الإمام مالك في مسنده برقم: 12254، وقد ضعفه بعض أهل العلم.

(25) النابلسي، **موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية آيات في الآفاق**، ص 154.

(26) النابلسي، **موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية آيات في الآفاق**، ص237.

(27) النابلسي، **تفسير النابلسي تدبر آيات الله في النفس والكون والحياة**، ص527.

(28) المصدر : تفسير الطبري، الصفحة أو الرقم: 235/3/13 | خلاصة حكم المحدث : صحيح، التخريج : أخرجه الطبري في ((تفسيره)) (128/23)، وابن عدي في ((الكامل في الضعفاء)) (386/1)، وابن بشران في ((أماليه)) (1548).

(29) المصدر : صحيح مسلم، الصفحة أو الرقم | 73 :خلاصة حكم المحدث: صحيح.

(30) الراوي : أبو هريرة | المحدث : البخاري | المصدر : صحيح البخاري، الصفحة أو الرقم | 4779 :خلاصة حكم المحدث] : صحيح [وقوله: قال أبو معاوية... معلق[، التخريج : أخرجه البخاري (4779)، ومسلم (2824)